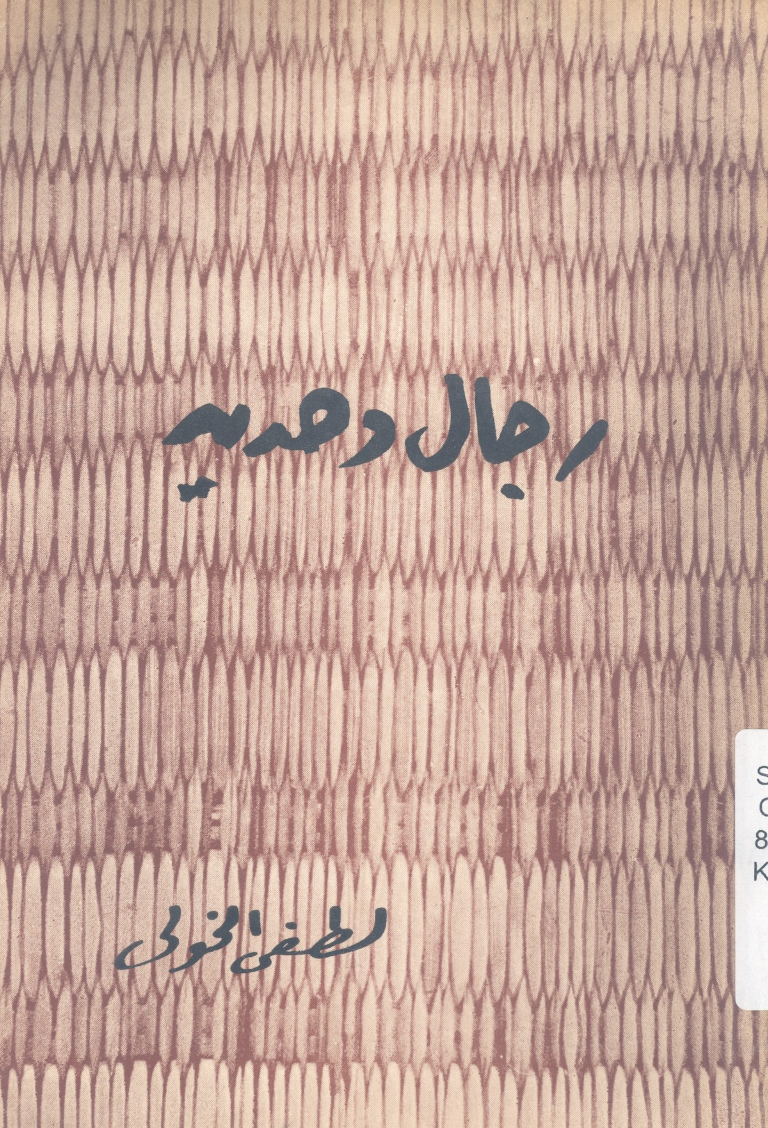
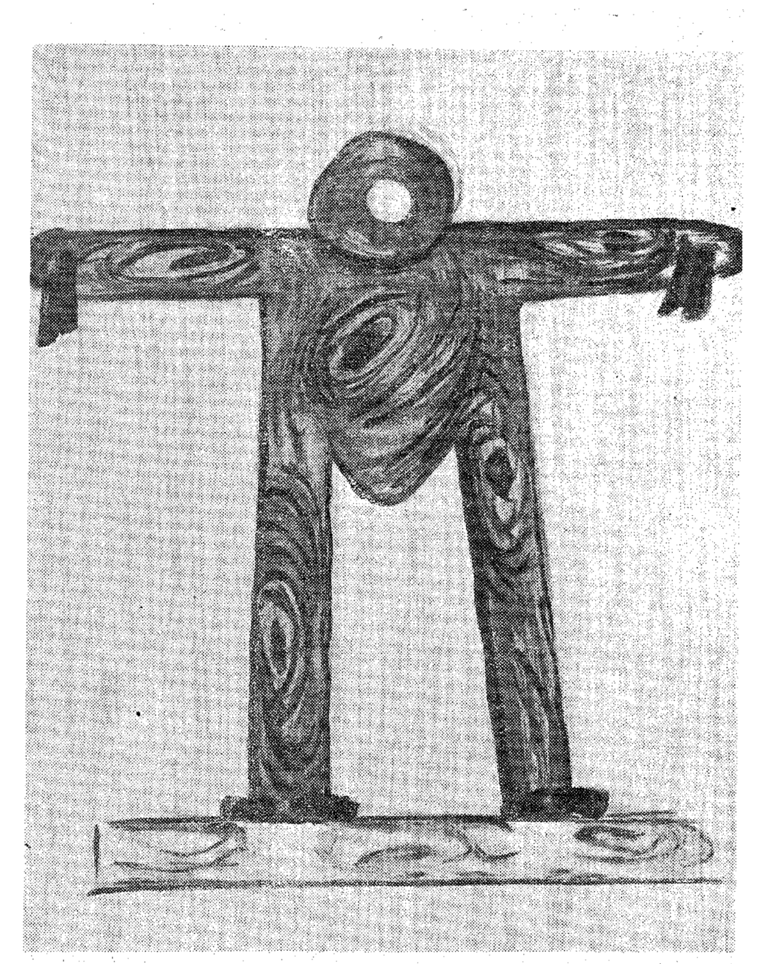

رجال وحديد
لطفي الخولي

رجال وحديد

لطفى الخولى

هذه القصص مستوحاه من تجـارب ثلاثين ليلة من شهر مارس عام ١٩٥٢ ، وقعت وراء القضبان ... ودخان حريق القـاهرة يكتم الأنفاس .



لطفي الخولي

رجال وحديد

دار النديم

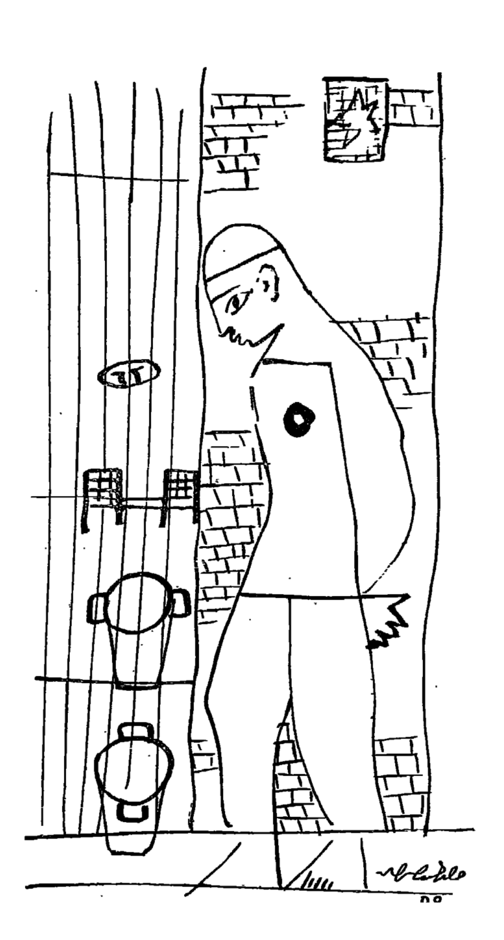
اللوحات والغلاف للرسام حامد عبد الله حامد

يطلب من الدار المصرية للكتب
٢٤ شارع عبد الخالق ثروت
بالقاهرة

طبع بمطابع دار النشر للجامعات المصرية ، ٤١ شارع شريف باشا ، القاهر

إلى شعبه لشعب مصر..
وأم لا تزال مرتهنة..
وأناس ما برحوا في كل مكان
يصنعون الحياة، ويلقون
الصعاب، وهم دائماً يتطلعون
في الغد والإنسان.

[illegible]



الليلة الأولى

دار مفتاح فى ثقب الباب دورتين صاحبهما صرير رتيب . وسمع حسن وقد صار وحيداً فى « الزنزانة » رنين طرقة أو أثنتين أحس أنهما من صنع الطرف السفلى للمفتاح الذى أغلق دونه البـاب الحديدى .. وتبع ذلك وقع أقدام ثقيلة تبتعد ، وصوت خشن يأتيه من خلال ضجيج المساجين الذين تتكدس بهم زنزانات العنبر :

ــ تصبح على خير ياأستاذنا .

ورغم أن التحية كانت قد نفذت تماماً إلى إذن حسن غير أنه لم يستطع أن يحرك لسانه بردها إلا بعد أن مضى شوطاً غير يسير يستعرض الصور العديدة التى تزاحمت فى وعاء رأسه عن الساعات القليلة الماضية ..

وتذكر الزمن فجأة .

الليل . والنهار . والأمس . وما قبل الأمس . والشمس الذى أخـذ قرصها الأحمر يتوارى فى حياء وراء المـآذن والقباب . وأشجار النخيل التى تبدو من وراء النافذة الصغيرة ذات القضبان المتقاطعة وقد اصطبغت بحمرة خفيفة .

ورفع حسن معصم يده اليسرى إلى عينيه . وحينما رآه عارياً تذكر أن الضابط النوبتجى قد انتزع منـه ساعته مع كل ما كان لديه من أوراق وكتب وأقلام ونقود وشفرات الحلاقة عندما قام بتفتيشه ساعة أن

تم تسليمه إلى إدارة السجن . وحاول حسن وقتها أن يحتج ، ولكن الضابط أفسد عليه المحاولة إذ سارع برفع رأسه من فوق الأوراق الصفراء والبيضاء التى تناثرت دون نظام على مكتبه وهو يقول فى هدوء مثير :

– هذه ممنوعات يا .. ياأستاذ .

– ولكن أنا مسجون سياسى .

– ولو . هذه هى الأوامر ..

وسكت حسن ، وتناول من يد الضابط التى أمتدت إليه قطعة نحاسية صغيرة وسمعه يقول :

– هذه نمرتك خمسميه وخمسين :

ثم تريث برهة داعب خلالها بأصابعه أرنبة أنفه وصاح :

– ياباشسجان . ياباشسجان .. ياباشســ ..

وفى سرعة عاصفة كالرعد وثب بجانب حسن ، جسم مفتول العضلات والشوارب أيضاً . وحينما رفع يده بالتحية كانت قدماه تصطكان إحدهما بالأخرى ثم بأرضية الغرفة الخشبية فى عنف مبالغ فيه . وهبت من أحد الأركان قطة سوداء كانت راقدة فى استسلام مغلقة العينين وراحت تدور حول نفسها وأمتلأت الغرفة بأصوات مختلطة :

– افندم .

– نيو . نيو ..

– أسمع يا ..

– نيو . نو . نو ..

– أفندم .

– بس . بس .

– نيو . نو .

وضحك حسن فى داخل نفسه . وطاف مشروع ابتسامة بوجه الضابط .وبقى الباشسجان فى مكانه دون حراك لا تهتز منه سوى بعض شعرات ناشذة عن قوس النصر المقلوب فوق فمه .فى حين قفزت القطة هاربة من النافذة . ووقف الضابط أمام مكتبه وألقى بأوامره فى أقتضاب :

— حسن عبدالسلام مسجون سياسى.. نمرته خمسمية وخمسين..دور خمسة زنزانة تنين وستين .

واقتاد الباشسجان حسن إلى دور خمسة .. فتركا مبنى إدارة السجن وأخذا يضربان فى رمال صحراء انبسطت على مرمى النظر، يحيط بها سور كبير غطته تلال من الأسلاك الشائكة . وقام بناءان كبيران إحدهما فى أقصى اليسار والآخر تطرف إلى اليمين .

ولاحظ حسن ان كل بناء لايحوى غير أربع طوابق . وخاطره أحساس بأن تعداده النظرى قد خانه فكرر التعداد مثنى وثلاث وفى كل مرة كان يصل إلى نفس النتيجة . أربعة أدوار بكل بناء . اذن فأين هو الدور الخامس الذى سيودع فيه ..

وعندما ألقى بملاحظته الحيرى الى «الباشسجان» انفرج ما تحت قوس النصر لأول مرة عن ضحكة مليئة . وراح يروى لحسن طريقة تعداد الأدوار فى مصلحة السجون ، وكيف أن كل عنبر مكون من أربعة أدوار فاذا انتهت أدوار العنبر الأول عند الدور الرابع يبدأ العنبر الثانى بالدور الخامس وهكذا حتى ينتهى بدوره العلوى الثامن .

ولم يتمالك حسن نفسه مرة أخرى فضحك ، ويبدو أن الباشسجان قد أصابه الأنزعاج فقضم ضحكته فجأة وتلفت يمنة ويسرى وهو يهمس :

— هذا ممنوع . هذا ممنوع ياأستاذ .

وكانا قد وصلا الى الباب الحديدى للعنبر الثانى الذى غصت ساحته الداخلية ، الممتدة بين صفين طويلين من الزنزانات ، بالمساجين السياسيين

عرف حسن بعضهم فتبادلوا العناق والقبلات . وأحاط الآخرون به يتساءلون فى همس عن شخصيته وعمله وقصة محاكمته ، بينما أخذ أصدقاؤه يضربون بأكفهم على صدره تارة وظهره تارة أخرى يسألون عن الناس والأخبار وأحوال الدنيا ..

ولم يترك الباشسجان له فرصة الإجابة على هذا الفيض الغامر من التساؤل ، فجذبه من يده واتجه به نحو احدى الزنزانات يتبعهما فريق من المساجين . وأشار الباشسجان الى داخل الزنزانة براحة يده اليمنى وقال بلهجة غليظة :

— اتفضل .

وسمع حسن صوتاً عاليا يأتى من نهاية العنبر مرحباً :

— أهلا وسهلا بالإيراد الجديد .. أهلا .. أهلا ..

وجاء صاحب الصوت العالى يتهدل فى بدلته الصفراء وتبادل مع الباشسجان كلمات صغيرة . ووقع كل منهما على أوراق تبادلاها وألتفت صاحب الصوت العالى لحسن ، منبسط الأسارير ثم غمز بعينيه قبل أن يحرك لسانه :

— محسوبك عبد القادر .. شاويش العنبر .

وابتسم حسن محيياً . ومع ذلك فلم يكف لسان الشاويش عبد القادر عن الحركة :

— أسأل أخوانك كلهم عنى . ده أنا بقيت سياسى زيكم تمام .. آه . الشعب والدستور لوحدهم والملك والإنجليز مع بعضهم .. وإلا يعنى أنا غلطان ..

وانفجر الجميع فى ضحكات لها رنين متواصل . وتبعثرت فى كل جانب أصوات مرحة :

– ياسلام ياعم عبد القادر .

– تمام .. تمام .. ياأبو عبده ..

– أهو دى السياسة على أصولها ياشويشنا . .

واقتنص الشاويش عبد القادر الفرصة فاستطرد يقول :

– تيجو تعملونى زعيم يا.... زملا ..

وشفع ذلك بانتفاضات ضاحكة أحس « حسن » أنها خارجة لتوها من أمعائه الغليظة .. ولم ينتظر الشاويش رأى الزملاء بل استمر فى حديثه :

– وبناء على هاذه الزعامة .. اتفضلوا بقى على الزنزانات ؛أحسن التمام خلاص .

وهاج الفناء بصيحات الاستنكار المشوب بالمرح . وانصرف كل إلى زنزانته ولم ينس بعضهم أن يحيي زميلهم الجديد :

– تصبح على خير يا « حسن » .

وهال الأمر « حسن » وعبر عن ذلك بصوت مكتوم :

– أصبح على خير . الساعة خمسه ..

وكان الشاويش عبد القادر على مقربة منه فى تلك اللحظة فراح يقول له وهو يدفع به إلى داخل الزنزانة رقم ٦٢ فى رفق :

– لامؤاخذه ياسى « حسن » . . أصل الأوامر أن السجن كله ينـام من خمسه .

ودخل « حسن » لأول مرة فى حياته زنزانة .. ولم يكن يتصور يوماً أنه سيدخلها باسما، فقد كانت حركات الشاويش عبد القادر وتعبيراته قد عسكت بسمة مضيئة على بسمات وجهه ..

....

....

وفجأة انشق الصمت المطبق الذى احتوى المكان بكل ما فيه من قضبان وأحجار ومساجين وحراس ونخيل عن صيحة حادة منغمة ممطوطة :

— وحدو ... و .. ه

وكأنما كانت الصيحة حجراً ألقى فى دوامة الخواطر التى انتابت «حسن» فأفاق إلى نفسه . وشعر بأذنيه وقد شحنتا بكمية وافرة من التسابيح التى تسربت من الزنزانات المظلمة . وأحس بذاته جسداً ممدداً على سرير حديدى ضئيل الحجم فى حجرة تشعبت بجو رطب فكأنما قدت من الصخر ، ارتفع سقفها إلى درجة غير عادية ، لا تتفق مع مساحتها فعرضها لم يزد على مترين وطولها لم يمتد لأكثر من ثلاثة أمتار . وفتحت عند أحد الأركان كوه صغيرة استطاعت عيناه أن تبصر من خلال قضبانها الحديدية السوداء صفحة السماء وقد بعثرت فوقها نجوم تلمع وتخبو بين الحين والآخر ، فقارن بينها وبين حالته القلقة المبهمة التى استغرقت فجأة حواسه جميعاً . فأحس بذاته وكأنما هى تتفسخ وتتفكك وتنفصل عن جسده وتنطلق من حوله أشباحاً هائمة وخيالات غريبة راقصة .

ولم يكن بالزنزانة بعد ذلك غير الدلوين اللذين تسلمهما من الشاويش عبد القادر « عهده » . واحد منهما امتلأ بماء صالح للشرب والآخر أعد لقضاء الحاجة إن اضطرته أمعاؤه إلى ذلك .وكان الشاويش عبد القادر قد نصحه بأن يفرق دائماً بين الدلوين حتى لا يخطىء فى استعمالها . ولكنه نسى تنفيذ النصيحة .. وأصبح من العسير محاولة تنفيذها بعد ما غمر الظلام كل معالم الزنزانة فصارت وكأنها قطعة من السواد البهيم .

وشعر « حسن » بحلقة جافاً كالصحراء الجرداء فى حاجة إلى رى .. وحاول أن يقوم من فراشه ليشرب . ولكنه خشى الوقوع فى الخطأ فظل قيد مكانه دون حراك .. ثم انتابته فترة تردد بين القيام والإحجام راودته

خلالها صوراً مختلطة لكوب ماء يتأرجح فوق صينية يحملها «محمد اليوغوسلافى» العامل بمقهى ايسافيتش بميدان الاسماعيلية بالقاهرة .. وبلاج سيدى بشر بالإسكندرية .. ودورة المياه بالمدرسة الابتدائية التى تركها منذ ماينيف عن اثنى عشر عاماً حيث كان يتوارى بها أحيانا ليدخن سيجارة .. وأكواب الشاى الأخضر بمقهى الفيشاوى بحى الأزهر .. ثم أمه ضاحكة ودامعة ومعاتبة .. وأبيه وأخوته ووجوه عديدة لأناس صادقهم طويلا . وآخرين لم يرهم فى حياته غير مرة واحدة.. صاحب الرأس الكبيرة الذى قابله عند الحلاق فى العيد . الفتاة والفتى الصغيران اللذان راحا يمثلان فى ركن من الحارة مشهداً غراميا شاهداه فى سينما .. وحبيبته يوم أن قبلها ويوم أن عاتبها لأول مرة فغمرت عينيها الدموع .. ويوم أن تسكع معها على الطريق يتبادلان الآمال والبسمات .. والرفاق الذين كان يجتمع بهم ليلا فى البيت العتيق فيستغرقهم النقاش وتسويد الصفحات ساعات محمومة .. وقاضى المحكمة بعينيه البارزتين وأنفه الأفطس وشاربه الرقيق وسترته الزرقاء وصوته الذى كان يتهادى بخيلاء مع حركة أصابعه العابثة بشعر رأسه يصدر أحكامه بالحبس والسجن والأشغال الشاقة .. والقضبان والقيود الحديدية والبنادق تحتك بظهره والجنود والضباط وسيارات الجيب ...

وفى لمحة اختفت جميع هذه الصور .وتحسس «حسن» براحة يده اليمنى أكثر من موضع من رأسه ووجهه وصدره . وقرر أن يستسلم للنوم وأن يقاوم كل هجوم تشنه عليه ذكريات الماضى .. الماضى الذى خلفه وراءه . ورأى أن خير وسيلة دفاعية ينهجها هى الانهماك فى عملية تعداد لاتنتهى إلا بنومه فبدأ يحرك شفتيه فى همس :

ـ واحد ... إتنين ... تلاته ... خمستاشر ... خمسة وعشرين ... ميه وتمانين ...

وانزلقت إلى أذنيه خلال عملية التعداد التى مضى فيها بلا هوادة ،

محاورة بين مسجون فى أحد الأدوار العلوية وسجان الليل . . وكان المسجون ينادى فى ضراعة :

ــ ياعم ياباشاويش .. ياباشاويش .. رد على وحياة النبى ..

ــ عايز إيه يا ولد ..

ــ أنا حاموت من البرد وحياة النبى ياباشاويش ..

ــ وحا اعملك إيه يا ولد . . إياك عاوزنى أديك جاكتى الميرى .. نام يا ولد وبلاش دوشة دماغ ..

ــ والنبى تشوف لى بطانيـة ..

ــ بطانية . بطانية إيه ياولد ياوش اللومان . . أديك بطانية إزاى من غير أمر دكتور السجن يا ولد ...

ــ حاموت من البرد . . اعمل معروف . .

ــ اعمل معروف إنت موت بسرعة وخلصنا . واخرس بقى واتلم أحسن والله العظيم أسحب البطانية اللى عندك .

ــ يا ناس ... البرد ... البرد ... حاموت ..

وكان حسن قد وصل فى تعداده إلى رقم ثلثمائة ولم يكن النوم قد أفلح بعد فى أن يسلب منه الوعى والإحسـاسات . وظلت أذناه تسجلان كل حركة أو صوت قريب منه ،فسمع السجان يخطو خطواته البطيئة فى اتجاه زنزانته ثم يتوقف ثم تصدر عنه همهمة ، يكاد لا يفصلها عنه سوى باب الزنزانة ، فتصل إليه :

ــ هيه .. وادى قعده ...

وبعد برهة تشابك حديث بينه وبين زملائه ايقن حسن انهم قد شاركوه جلسته .

– شوفوا يا اخوانا . . الولد عايز بطانية .

– عايز الحق ياعم سالم .. الدنيا بردت ...

– طيب وأنا ذنبى إيه ياشاويش أحمد . أهو انت سيد العارفين .. هو أنا أقدرأسلمه بطانية إلا بعدما الدكتور مايكشف عليه ويأمر بأن حالته الصحية عايزة بطانية زيادة..وضابط العنبر تمضى بالعلم والمأمور يوافق على الصرف . . وياريت بعد كده نلاقى فى المخزن بطانية . .

– عندك حق .. الأوامر كده . . شوف احنا..الدنيا عاملة زى التلاجة والشتا السنة دى داخل بدرى علينا . . ولما جينا نلبس الهدوم الشتوى المأمور رفض .

وقاطعه أحد زملائه :

– أيوه ياسيدى علشان الحكومة ماتعرفش الشتا رسمى إلا فى نوفمبر . ونموت احنا بقى او الشتا ضحك على الحكومة وجه بدرى زى السنة دى . .

– آه يا أولاد . احنا اللى نموت . . لكن الحكومة والمأمور يتكلفتو بالهدوم التقيلة والفانلات الصوف المعتبرة .

وانفجر أحدهم صائحاً .

– طيب على الطلاق بالتلاتة احنا مش رجالة . شوفو الجدعان دول اللى تركوا أهاليهم واترموا فى الزنزانات علشان يهدلوا الحكومة . . اتصوروا ياناس أن الملك بياخد كل سنة مية ألف جنيه . . جنيه ينطح جنيه ..

وعلق واحد فى صوت حزين : .

– ميت ألف جنيه ياجدعان طيب ده أنا حبيت أتجوز واحدة فأهلها

طلبوا منى خمسين جنيه مهر .. أجيبهم منين .. أسرق .. ده أنا كل ماهبى ثمانية جنيه فى الشهر ..

– خمسين جنيـه مهر . ليه .. هو انت كنت حاتشترى بنت البدراوى ولاعبود . ياشيخ سيبك من الجواز اليومين دول .. إسألنى أنا ده يبقى حرام عليك تتجوز وتخلف وترميهم فى الدنيا الضلمة دى . .

وارتفع صوت فى لهجة زاجرة :

– ياشيخ حرام عليك .. الزواج نص الدين .

– والنبى اعمل معروف وبلاش نص ولا ربع . .

– ياشيخ وحد الله فى قلبك وبلاش كفر . .

– كفر . .

وارتفع أكثر من صوت يطلب عدم الخوض فى هذا النقاش الدينى الشائك . فسكت الجميع لحظات ، وكان حسن قد لفظ وقتها رقم ثمانمائة وتسعين .. وعاد السجانة يتبادلون الحديث ..

– اللى رطل القوطه بكام النهارده ..

– أنا اشتريته بأربعة قروش . .

– يا أخى القوطة دى مجنونة بحق وحقيق .

– ياشيخ ..

وكانت هذه آخر كلمة قرت فى أذنى حسن قبل أن يطويه النوم .

وفى الصباح الباكر استيقظ حسن على صوت دقات عنيفة لناقوس قريب . وبعد لحظات دوى فى فضـاء العنبر صياح الشاويش عبد القادر المرح :

– صباح الخير يارجاله .

ورويداً رويداً أخذت حركة الاقدام تدب فى كل مكان .

وسمع أنين سجين يقول :

– يا ناس ارحمونى .. بطانية .. حاموت من البرد . .

ودار المفتاح دورتين فى ثقب الباب الذى يستلقى حسن وراءه، فانفتح وامتلأت الزنزانة بزملاء ضاحكين . راحوا يسألونه عن الليل والنوم والأحلام . .

وردد لسان حسن فى ذهول : .. ألف وخمسه

وران الصمت لحظة . والتقت العيون فى نظرات سريعة وأحس الواحد منهم أنه والجميع يبتسمون ، بيد أن الشفاه لم تتحرك ..





جذب الباشسجان العجوز فى تراخ « جرس التمام » عدة مرات فترامى إلى سمع المساجين الذين قبعوا داخل الزنزانات المظلمة ثلاث دقات متثائبة . وباتوا على يقين — رغم عدم وجود أية آلة لحساب الزمن — أن الوقت يتذبذب حول الخامسة من مساء يوم من أيام سجنهم الطويل .

وعلى باب السجن الخارجى ، وقف الضابط الشاب بقامته الفارعة وكأنه واحد من النخيل الذى انتثر دون ما نظام فى المكان القفر ، ينهر الباشسجان المنهمك فى وضع حلقة من المفاتيح الكبيرة فى وعاء حديدى صدىء يغلقه بحرص بالغ « بالجمع الأحمر » يذيبه على جانبيه تحت فتيل شمعة صغيرة . وراح وكيل الباشسجان يدس فى مواضع مختلفة من طينة الجمع التى لم تجمد ، خاتماً متآكل الأطراف فتنطبع فيها آثار غير واضحة تماماً ...

وعلى صوت الضابط معلناً فى حزم وهو يختلس النظر إلى ساعته الذهبية التى تلمع حول معصم يده اليسرى :

— دى المرة التانية اللى بيتأخر فيها التمام ... الساعة خامسة .. خامسة وربع ...

وحاول الباشسجان أن يقول شيئاً فانزلقت من بين شفتيه كلمات خفيضة متقاطعة متلاحقة :

– أصل ... أفندم ... الحكاية ... المسألة زحمة .. السجن بقى ...

وصرخ الضابط مرة أخرى:

– خلصنا . وبلاش فلسفة .

وانطبقت شفتا الباشسجان العجوز إلى بعضهما خامدتين دون حراك كما لو كانتا سيارتين يقودهما أعميين تصادمتا فجأة . وهرول بكل ما بقى فى جسده الضامر من طاقة نحو صندوق خشبى ألصق بجوار الباب ففتحه وأودع فيه الوعاء الحديدى المختوم بالجمع الأحمر ثم أحكم إغلاقه . وعاد لينحنى انحناءة خفيفة وهو يقدم مفتاح الصندوق إلى الضابط . ودس الضابط المفتاح فى جيبه . وتحرك لسانه داخل فمه المقفول فسمع له صوت مدغوم : « هيه » .

وكان الباشسجان على ما يبدو فى انتظار هذه الـ « هيه » فرفع يده بالتحية العسكرية وتبعه فى ذلك وكيله وجمع من الجنود اصطفوا وراءه.

وأدار الضابط وجهه للجميع فى تعاظم ومضى . . وحينما ابتعد بضعة أمتار انتفض الباشسجان العجوز صارخاً فى وجه الجنود ، وكأنه شاب فى العشرين :

– والله يا ولد الحرام . لو واحد منكم جه متأخر بكره لأنزله « طابور » زياده ...

وأجال ناظريه فى تحد غريب إلى الوجوه الصامتة أمامه قبل أن يعود إلى هيئته الوادعة التى تضطره كهولته إليها . فأصلح من هندامه بعدما أفسدته الحركات الهستيرية التى صاحبت صراخه ، ومضى هو أيضاً على الطريق يتبعه فريق من الجند بينما سار الفريق الآخر فى الاتجاه المضاد وهم يتبادلون الضحكات والنكات الساخرة ...

وغرق البناء الأسود ذو الفتحات الصغيرة المسدودة بالقضبان الحديدية فى سكون تتخلله همسات باهتة وأصداء خافتة لأغان حزينة مختلطة النغمات :

— ظلمونى ياربى .. حبسونى يا ربى ..
— الحديد فى إيديا .. وغرامك بفؤادى ..
— على بلد المحبوب ودينى .. زاد حبى والبعد كاوينى ..

وكانت الظلمة الزاحفة فى تثاقل وشمول ، تضفى مزيداً من الكآبة والرهبة على كل شيء .. النخيل . البناء الأسود . الأسوار الشائكة . والحراس بعثروا فى ساحة السجن الداخلية وحول السور الخارجى متدثرين بالمعاطف الثقيلة ذات الأزرار النحاسية الصفراء وتعلقت بأكتافهم البنادق شاهرة السونكى ..

وفجأة انطلق صوت أجش تشوبه بحة غليظة اللهجة من أحد الأدوار العلوية من عنبر المساجين هاتفاً فى نغم ممطوط :

— « واحد .. يا ورد .
اتنين .. يا فل .
تلاته .. يا ياسمين .
أربعه .. يا سوابق ولومانيه .
خمسه .. يا جرب وأمراض جلديه .
سته .. يا شيوعيه على سياسيه .
سبعه .. يا أجدع ناس معلمين مدوخين وزارة الداخليه .

ربنا لما ابتلى أيوب . صبر أيوب . ما من مسجون إلا أفرج الله حبسته . ما من مريض إلا شفى الله علته . ما من مهموم إلا أزال الله همه . أعرفكم يا أخوان أن محسوبكم محمد يوسف الشهير بالمعلم كوسه من « هورمين » مركز أوسيوط خارج إفراج بكره من سنه ونص . عقبال عندكم ياحبايب » .

وضج العنبر كله بالصياح والهتاف. وانطلقت « الزغاريد » من داخل الزنزانات تقرع الظلمة والسكون تصاحبها الضحكات الرنانة . وانساب إلى الآذان سيل من الأصوات المتتابعة :

— ياميت مسا يامعلمنا .

— سلامى لو أوسيوط يا معلم كوسه .

— بوس لى الشمس والنبي ياقمر .

وأهاجت الضجة أعصاب شاويش العنبر المنزوى بأحد الأركان، يقرأ بصوت خافت ، بعض التراتيل الدينية من كتاب قديم أصفر الصفحات . وحاول فى بداية الأمر أن يتغاضى عما حدث ويمضى فى القراءة . ولكن الضجة لم تسكت بل ظلت على حالها ، عالية صاخبة ، فما كان منه إلا أن قضم بشفتيه التراتيل وانتفض واقفاً وقد ألقى برأسه إلى الوراء فتلاقت عيناه بالسماء الملبدة بالغيوم وراء سياج من الحديد. واصطبغ وجهه بحمرة قانية وهو يلوح بيديه مهدداً :

— والله عال يا لومانيه يا أولاد المراكيب .. طيب على الطلاق بالتلاتة لا حلقلكم شنباتكم بكره . أنا عارفكم يازنزانة خمستاشر يا ..

وكانت الضجة تنبعث فعلا من الزنزانة رقم ١٥ بالدور الثالث أكثر مما تنبعث من أية زنزانة أخرى . وانبثق من داخلها صوت غليظ يقول فى لهجة عتاب :

— مالك ياشاويشنا .. مش نحتفل بعمدة زنزانتنا وإلا يعنى عايزه يخرج بكره سكيتى ..

ورد الشاويش وقد عاد إليه هدوءه :

— احتفل على كيفك ياسى « هوا » بس بالراحه اعمل معروف أحسن فيه مرور الليلة .

وأطلق « الهوا » ضحكة ذات صليل وهو يهبط من أعلى نافذة باب الزنزانة الحديدى ليفترش الأرض وسط أحد عشر شخصاً ،أسندوا

ظهورهم إلى الجدران الأربعة. وقد غرقوا فى الظلمة التى عطلت أعينهم عن الحركة فاضطرت آذانهم وأيديهم أن تتقاسم القيام بوظائفها .

ومضت فترة كان « الهوا » فيها قد استقر تماماً فى جلسته وعاد إلى تحريك لسانه الغليظ من جديد :

— والله حاتوحشنا يامعلم ..

وصدرت همهمة غير واضحة من أحد الأركان . ولكن لسان «الهوا» استأنف حديثه .

— اسمعوا ياجماعه .. بقى الليـلة دى صباحى بأذن الله .. حانقعد نسمع حكاية المعلم كلها وأحنا بندخن تلات سجاير كاملين مرة واحدة.. ولا من عاش ..

وامتلأت الزنزانة بصيحات الاستحسان . وحاول المعلم « كوسه » أن يعترض. ولكن اعتراضه كان ليناً وفى صورة تكشف عن رغبته الدفينة فى إعطائه فرصة واسعة للثرثرة . وقد كان معروفاً خلال الشهور التى قضاها بالسجن أنه يتصيد كل سجين جديد يقع عليه بصره، ليروى له قصة سجنه ـ على حلقات متتابعة ـ حتى لقد غدت « أم السعد » التى تشاركه بطولة القصة شخصية معروفة فى جميع السجون المصرية .

وقام « الهوا » فأشعل السيجارة الأولى للمعلم كوسه الذى لاح وجهه من خلال لهب عود الكبريت المسروق مستديراً، تناثرت على صفحته المشعرة عينان ضيقتان وأنف غليظ وفم واسع وبسمة شاحبة .

وجذب المعلم كوسه نفساً عميقاً من السيجارة، وأعطاها لزميله الجالس إلى يمينه ، ثم أخذ يطلق الدخان من فتحتى أنفه على دفعات . وبدأ يقول فى لهجة صعيدية تحيل « القاف » إلى « جيم » غليظة :

— والله يا اخوانا ماكنت عايز أحكي الليلة شيء .

وتعالت ضحكة « الهوا » والهمسات الساخرة من أركان الزنزانة بينما استمر هو في حديثه فقد اعتاد — طوال سنة ونصف سنة — مثل هذه المقاطعات :

— .. ولكن بجي علشان خاطر الناس الجداد والليلة المفترجة دى حاجول الحكاية كلتها من غير ما اخبي ولا حاجه ..

وصرخ « الهوا » :

— بجي كنت بتخبي علينا ..

ومضى المعلم كوسه في حديثه دون أن يعير « الهوا » أدنى التفات :

— بجي أني معلم أنفار محترم .. اسألوا عني كل مجاولين أوسيوط .. أجوم بالخدمة على التمام والكمال طول النهار . واللي نكسبه الصبح نصرفه المسا على الحظ والأنس والفرفشة .. جالوا لى كتير اتجوز .. اتجوز ياكوسه وافتح لك بيت . وأني كنت راكب راسي وسادد وداني واحدة طين والتانية عجين وأجول لنفسي لع .. البعد عن النسوان أحسن ..

وفى يوم كنت باشتغل مع مجاول . وجعدت ساعة الضهر أستريح جدام عتبة دار جريبه . وما أشعر يا ولداه إلا و صفيحة ميه تندلج فوج دماغي . جمت مفزوع أسب وأشتم فسمعت من ورا الشباك حتة دين ضحكه نواعمي .. أجول لكم الحج والا ابن عمه .. الحج مفاصلي سابت ومبجتش عارف ألمها ..

وسرت في الزنزانة همهمات مختلطة . ولكن المعلم كوسه كان قد نفذت إليه حمى الحديث فلم يشعر بشيء منها وانطلق يكمل روايته :

— نهايته بجيت كل يوم أجعد تحت الشباك يابوى اعمل حبة شجاوه لغاية ما عرفت إن إسمها «أم السعد» من بحرى . وجوزها مات من سنه .. وحبه فحبه فحبتين جريت كلام خفيف معها من ورا الشباك . وبعدين رحت واخد بعضي في نص شعبان ومشترى وجتين موز .. الموزه الواحده

نص عود جصب .. ولبست الجلابيه الكشمير المعتبر .. وهب على أم السعد . خبطت على الباب وسمعت الصوت الحيانى من ورا الباب يجولى «مين» فأنى .. عايزين الحج والا ابن عمه .. الحج ارتعشت وحسيت بجلبي يابوى يدج .. يدج .. يدج فجالت «مين» تانى فاتشجعت وجلت: أنا كوسه فجالت لى ..

وهنا ارتفع صوت «الهوا» يسأل فى خبث :

– من ورا الباب برضه ؟ ..

واستطرد المعلم كوسه يروى بنفس الحماس الذى شمله :

– .. كل ده من ورا الباب .. جالت لى فيه خدمه يا معلم . جلت كل سنة وانت طيبه يا ست . ومديت إيدى بالموز جوه الباب فجالت لى وهى بتاخده : وليه التعب ده يا معلم . جلت : دى حاجه بسيطة مش جد المجام . جالت : وهو أنا مجامى أكبر من كده . جلت : ألف ألف مرة . وبعدين بصيت لجيت الباب انفتح شويه وظهرت جدامى حتة دين «حرمه» زى المهلبية .. وشها زى طبق الصينى الأبيض بعد غسيله والشعر أسود طويل .. طويل يابوى ومتضفر بضفرتين واحده على الصدر وواحده على الضهر .. أجول لكم الحج والا ابن عمه .. الحج أنا خلاص كنت حا أجع من طولى .. ومن غير كلام ولا حديت رحت نازل طوالى ورحت أمشى فى البلد وأنا مش دارى بروحى . وبعدين جعدت فى خمارة «ينى» والفكر شغال فى دماغى .. نهايته جلت لنفسى اتجوزها يا واد يا كوسه وكون لك بيت ..

وكان «الهوا» قد أشعل السيجارة الثانية وراح ينفث دخانها فى وجه المعلم كوسه وهو يهتف فى مرح :

– يا كوسه .. يا كوسه ..

وتوقف المعلم كوسه ريثما جذب نفساً من السيجارة الجديدة ثم عاد إلى حديثه :

ـ نهايته .. تانى يوم رحت لجيتها واجفة ورا الشباك . جالت لى الموز كان زى الحشطة يامعلم . جلت بالهنا والشفا.. دى الحشطة هى اللى كلت الموز. ولما ضحكت اتشجعت وجلت لها.. تيجى نتجوز ياأم السعد.. سكتت ما ردت . جلت تانى : تيجى نتجوز يا أم السعد . سكتت ما ردت. جلت تالت : تيجى نتجوز يا أم السعد ..

وقاطعه « الهوا » مكملا : سكتت ما ردت .

وقال المعلم كوسه فى حسم :

ـ لع .. ردت . جالت وماله يامعلم .. بس ليه السرعة دى . جلت : ولا سرعة ولا حاجة .. الحلال أحسن . جالت طيب .. والمهر .جلت : زى ما انت رايده .. جالت : سته جنيـه . أنى جلت : لع .. كتير . وفضلنا شويه من عندى وشويه من عندها لغاية ما اتفجنا على أربعه جنيه ونص . وجت متعازم ومطلع الجنيه اللى كان فى جيبى . وأديته لها عربون . ويومها سبت الشغل ورحت على خمارة ينى وفضلت أشرب وأشرب على الحساب .. لغاية ما بجيت زى البرميل .. وراحت أيام وجت أيام واحنا فى تبات ونبات .. وجعدت ألم فى التلاته جنيه ونص بجية المهر وجنيهين كمان علشان المأذون والشربات . وفى يوم كنت رايح لها بشوية برتجان.. لجيتها مبوزه . يوم تانى كانت برضه مبوزه وتالت ورابع. وبعدين جلت لها : أيه الحكاية ؟ جالت أنى مجدرش اتجوزك. ليه ياست ما اتفجنا وخلاص . جالت : محمد افندى موزع البوستة طلبنى بخمسه جنيه ونص. جلت لها : بجى علشان جنيه واحد تعملى كده . جالت: ماهو أنت واخدنى برخص التراب . أدفع كمان جنيه . جلت : ياريت ياست كان عندى جنيه كمان كنت دفعته . جالت : استلف . السلف مش عيب . جلت : لع ..

جالت : يعنى أنى ما أستحجش كمان جنيه . جلت : تستحجى عشره لـكن أحنا اتفجنا وخـلاص . جالت : لا مااتفجناش . ودست ايدها فى صدرها وطلعت الجنيه ورمته فى وشى ..

أجول لكم الحج والا ابن عمه .. الحج أنا روحى خلاص خرجت من حلجى .فرحت واخد الجنيه ونزلت وانا باغلي على خمارة «ينى» . وجسمت الجنيه نصين .. مليت بواحد بطنى سبرته .. ومليت بالتانى طلسة دماغى حشيش من أحسن صنف .. ماركة تشرشل وحياة النبى . . وبجيت مش حاسس بنفسى . ورحت ماشى فى السكك أغنى وأهيص زى المجنون تمام . وبعدين بصيت لجيت نفسى تحت شباك «أم السعد» فهى أفتكرت إنى جاى أضربها راحت صارخه..الناس جم حاوطونى ونزلوا فى ضرب وهى تتصنع البكا وتجول : سرج فراخى ياناس سرج فراخى ..

وفى نجطة البوليس جالت أم السعد أنى هجمت عليها وسرجت فراخها وكل ناسها شهدوا معها ضدى . وجيت أجول للضابط الحجيجة .. منعنى. ورمانى فى الحبس . ولما جت النيابه حصل نفس الشي.وفى المحكمة الجاضى سألنى :

ــ سرجت الفراخ يا كوسه . جلت :لع .. جال : أمال الحكايه أيه .

فحكيت له الحكاية من الأول للآخر فصدجنيش ..وصدج أم السعد وشهودها وراح خابطنى ست أشهر سجن فانا رحت مزعج وجلت :

ــ ايه الظلم دى ..

فجال : ظلم يا كوسه . جلت له : والله ظلم فى ظلم ياحضرة الجاضى . جال لى : ست أشهر كمان علشان أهنت المحكمة

جلت : أهو دى ظلم فى ظلم فى ظلم .

راح عاطينى ست أشهر كمان .

جلت له : كفايه لغاية كده .. كفايه ..

ونهايته جابونى هنا .. »

وحين وصل المعلم كوسه إلى هذا الحد من الحديث كان قد جذب النفس الأخير من السيجارة الثالثة التى اختص هو بها وحده .. وكان

ضياء الفجر قد أخذ يتسلل من خلال قضبان النافذة الضيقة فيضيء الزنزانة بعض الشيء ، ويسمح لعيني كوسه أن تؤديا وظيفتهما الطبيعتين فكشفتا عن زملائه الأحد عشر وقد غرقوا في النوم ..

وضحك كوسه من نفسه عندما أيقن أنه ظل يروى قصته مع أم السعد فلا يسمعها أحد من نزلاء الزنزانة — على الأقل في فصولها الأخيرة — سواه .

وأجال عينيه في نظرة عتاب بين أجساد زملائه التي تكورت في أجولة الخيش الزرقاء .. وحين تملكه الشعور بأنه سيغادر بعد ساعات قليلة هذه الزنزانة الصغيرة الكئيبه إلى الناس .. والسكك .. وخمارة يني .. وشباك أم السعد ، أحس بفرحة شاملة تعربد في أعماقه وتكاد تنطره على قدميه راقصاً . .

وبالرغم من كل ذلك فقد دمعت عيناه . وتمنى لو خرج معه كل زملائه حينما تململ جسد « الهوا » الراقد بجانبه وراح صوته الغليظ يهمس في نعاس يلتهم آواخر الكلمات :

— الله .. أنت لسه هنا يا كوسه .



حوار المصلحة

دفع مأمور السجن بيده النحيلة المعروقة باب حجرته . واجتاز بجسده القصير الذى علته رأس صلعاء ووجه أملس حاد التقاطيع ، عتبة الباب فى عصبية ، دون أن يتنبه إلى العسكرى الذى انتصب كعامود طويل من الخشب ، محيياً ..

وكان جو السجن يصخب بأصوات منتظمة نتيجة لدق المساجين قضبان زنزاناتهم بأوانى الطعام النحاسية .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك ..

وما أن استلقى المأمور على مقعده حتى راح يفك أزرار سترته العسكرية الصفراء . ويمسح بمنديله الأبيض حبات العرق التى بللت وجهه ورقبته ومعصمى يديه وهو يزفر فى حرقة وضيق :

ــ أف .. أف ..

ومرر المنديل فى حركات متذبذبة أمام وجهه ليرطبه ببعض الهواء . وثنى جسده بصعوبة فحل عقدة رباط حذائه الأيسر ،وأرسل رجله فى الفضاء فانفصل الحذاء عنها إلى ركن الحجرة . ثم أخذ يتحسس قدمه ويضغط على أصابعها وقد ارتسمت على وجهه تعابير متلاحقة للألم وهو يهمس لنفسه ضجراً .

ــ أف .. كالو .. وحر .. ودوشة دماغ .. هو أنا ناقص ..

وقام من مقعده يترنح نحو نافذة الغرفة التى تطل على فناء السجن الداخلى وشرع يفتحها ببطء فصدمت أذنيه أصوات : ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. فأعاد غلق مافتحه فى سرعة ، وصرخ:

— واد يا شعبان ..

ونفذمن الباب العسكرى الطويل كعامود الخشب ونفذت معه أصوات : ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. واستمر المأمور فى صراخه :

— هات لى قهوة بسرعة يا ولد ..

— قهوة .. قهوة إيه ياسعادة المأمور .

— قهوة إيه .. قهوة ياغبى .. قهوة ساده .. واسمع .. الدكتور بسلامته أول مايجى يفوت على طول هنا .. فاهم .. هيه ..

وبسرعة خرج شعبان وهو يغالب ضحكه ويحدث الجنود عن منظر «البيه المأمور» .وهو واقف وسط حجرته تتوجه صلعته الوهاجة .. سترته مفكوكة الأزرار ، حافى القدم الأيسر ، والحذاء ملقى فى ركن الحجرة تحت النافذة . وتجمع الجنود حول ثقب الباب يشاهدون منظر « البيه المأمور » ودقات .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. تضج من حولهم دون ماتوقف ..

كان المأمور يحرك يديه بانفعال فى كل اتجاه .. يحدث نفسه بحرارة ويقوم ثم يقعد ثم يقف مستنداً إلى مكتبه ثم يجلس على حافة المقعد وينقر بأصابعه على صلعته بين الحين والآخر ..

ودخل شعبان بفنجان القهوة فوضعه فى سكون على المكتب ، وهو يختلس نظرات فاحصة للمأمور وانفلت خارجاً . . رآه المأمور بعينى رأسه جيداً ولكنه لم يحس به ، فقد كان مستمراً فى التحدث إلى ذاته بصوت مسموع ولهجة من يحاول اقناع أحد يخالفه الرأى :

— طيب وأنا اعمل إيه . . هيه .. النظام كده .. النظام اللى عاملاه

مصلحة السجون ، أنا مش جايبه من بيتنا .. هيه .. المسجون المريض اللى عايز يكشف عليه الدكتور .. هيه .. لا يمكن ينكتب فى كشف العيادة إلا إذا امتنع عن الأكل يومين ورا بعض .. هيه .. يبقى أنا ذنبى إيه .. هيه .. مات .. مات مات الله يرحمه .. أعمل له إيه .. هيه .. طيب والله العظيم ارتاح من بلاوى الدنيا .. هيه ..

وبلفتة من رأسه تنبه المأمور إلى فنجان القهوة . فتوقف عن الكلام وارتشف منه رشفة مليئة منغمه . واسترخى على مقعده صامتاً . وأخذت كل حوادث اليوم والأمس وأول أمس تتلاطم فى رأسه كالموج العاصف وطنين ترك .. ترك .. ترك يملأ أذنيه ..

منذ يومين جاء إليه شاويش عنبر « ا » يخبره بأن المسجون « عوده » فى حالة إعياء شديد « وجهه أصفر كالليمونه .. هيه .. جسمه يتلوى كالثعبان .. هيه .. » لا يتوقف فمه عن إطلاق صرخات الألم . تتسرب من صدره كحات متوالية كنهيق الحمار والمساجين يطالبون بعرضه فوراً على الدكتور . والدكتور يرفض الكشف عليه لأن « التعليمات » تمنعه إلا إذا أدرج اسمه بكشف العيادة بمعرفة باشتمرجى السجن . وباشتمرجى السجن أبى قيد اسمه بكشف العيادة لأن شاويش العنبر لم يثبت فى « أورنيك تمام » الأمس وأول الأمس امتناع المسجون «عوده» عن تناول « التعيين » . وهو الشرط الذى توجب الأوامر تحققه قبل طلب العرض على الدكتور حتى يمكن التأكد من جدية الطلب .

« إشكال كبير . مريع .. هيه .. » .

فماذا يفعل ؟ ..

إن الحق فى جانب الجميع .. مع الدكتور وباشتمرجى السجن وشاويش

العنبر .. بل ومع المسجون عوده نفسه .. ولكنها الأوامر .. أمر محير « يربك أعظم عظيم .. هيه .. لا بد من حل .. حل سريع يهدىء ثورة المساجين . فأنا الرئيس .. الرئيس الأعلى للسجن حلال العقد . . كل العقد .. هيه .. »

والحق أن المأمور كان شجاعاً فى حله للإشكال فقد كلفه ذلك مخالفة التعليمات .. التعليمات الميرى .. وهو أمر جلل، لم يحدث له فى حياته الطويلة الحافلة بمصلحة السجون غير مرة واحدة، منذ أكثر من عشر سنوات، حينما سمح لأحد المساجين بأن يشرب ماتبقى بكوب الشاى من ماء ساخن عكر .. وهذه هى المرة الثانية . . يأمر بوضع اسم «المسجون عوده» فى «كشف العيادة» لعرضه على الطبيب رغم عدم امتناعه عن تناول « الميك » فى اليومين السابقين تحت مسئوليته الخاصة ..

وأجرى الطبيب الكشف على المسجون عوده ... وكان كشفاً دقيقاً بناء على توصيات البيه المأمور – شمل فروة الرأس وجفنى العينين ولسان الفم والصدر والظهر وأصبعى الإبهام من قدميه. وفى كل لحظة كان الطبيب يلفظ فى تزمت وضيق : « غريبة » وأحياناً « غريبه قوى » وأمسك بعد ذلك ورقة مطبوعة مقسمة إلى خانات وراح يخط فيها نتيجة كشفه : « بالكشف على المسجون عوده رقم ٣١٠ بدور تلاتة بالعنبر « ا » كشفاً عاماً شاملا دقيقاً نشك فى أنه مصاب بالملاريا أو الأنفلونزا الحادة أو الحمى الشوكية .. حالته العامة نصف خطر وننصح له بتعاطى ثلاث أقراص من السلفا وست أقراص أسبرو يومياً .

ملحوظة : الكشف أجرى بناء على طلب حضرة البك المأمور وتحت مسئوليته الخاصة . »

ولما كانت عيادة السجن لا تحوى من الأدوية والعقاقير غير صنفين اثنين أحدهما يسمى « مزيج أبيض » والآخر « مزيج اللحلحاح » وهما

يداويان بقدرة قادر جميع الأمراض ابتداء من الكوليرا حتى صداع الرأس، فقد نشطت إدارة السجن فى «تسريك» خطاب إلى الإدارة العامة بمصلحة السجون تطلب فيه :

« التكرم بالموافقة على تقرير طبيب السجن واعتماد قيمة الدواء المطلوب والسماح بشرائه ، حيث أن حالة المسجون نصف خطرة ونخشى جداً أن تتحول إلى خطر كامل » .

وكان المأمور شهماً وشجاعا أيضا حين وقع على الخطاب فى نفس اليوم رغم «الملحوظة البايخة .. هيه.. » التى كتبها الدكتور بذيل تقريره .. «ياالجبن والخوف من المسئولية .. هيه » .. ومر يوم واثنان والسجن كله فى انتظار رد المصلحة . والمسجون عوده يذوى حتى صار جسده هيكلا عظمياً مكسواً بجلد أزرق داكن . وغدا وجهه أكثر اصفراراً من الليمونة ذاتها . ولم تعد تسمع له كحة وإنما حشرجه مستمرة ذات أنين حاد ولم تنفع معه جرعات المزيج الأبيض ومزيج اللحلحاح معا ..

والمساجين هائجين ثائرين يضربون القضبان بأوانى الطعام النحاسية .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. وما العمل ؟ هل يقوم السجن مباشرة بشراء السلفا والأسبرو .. لا .. لامفر من انتظار جواب المصلحة .. « إلى هنا .. هيه .. ولا أستطيع التصرف أبداً .. مستحيل أدخل أدوية وأشياء غريبة فى السجن من نفسى بدون تصريح المصلحة .. مستحيل ..هيه.. الدكتور شاطر فى الملحوظات البايخةوبس .. كان يقدر يعمل أى حاجة غير حبوب السلفا والأسبرو .. كان يقدر قوى .. هيه .. لكن تقول إيه .. يخس عليه إيه .. هيه .. مستريح فى بيته عال أربعه وعشرين قراط ومصدرنى أنا لدوشة الدماغ .. آه .. »

وفى هذه اللحظة التى تأوه فيها المأمور ، اقتحم الحجرة إنسان مجدور الوجه ذو جسم ربعه ، يرتدى معطفاً أبيضا ، تناثرت عليه بقع مختلفة الألوان والأحجام . تقبض أسنانه على فم ذهبى مركب به سيجارة مشتعلة ومن

ورائه تدوى أصوات .. ترك .. ترك .. ترك .. وسأل المأمور فى كبرياء:
ـ الله .. أنت عامل فى نفسك إيه . يا أكسلانس .

وكان المأمور قد خلع جاكتته وبقى ببنطلونه الكاكى فقط عارى الصدر ، حافى القدم الأيسر . وقبل أن يتحرك للإجابة على السؤال، راح ذو المعطف الأبيض يمطره بأسئلة متتابعة :

ـ هم المساجين لسه هايجين ؟ .. جواب المصلحة شرف ؟ .. حانعمل إيه فى المصيبة دى .. يا إكسلانس .

ورد المأمور فى صوت خفيض :

ـ أهو زى ما أنت شايف يادكتور .. ماتشوف علاج تانى .. هيه ..

وقطب الدكتور جلد وجهه . ومد شفتيه إلى أمام ومسح براحة يده اليمنى جبهته ثم قال بتؤده متفكراً :

ـ طيب .. نشوف ..

وسكت هنيهة قبل أن يستطرد قائلا :

ـ إنما بعد ما نكشف على عيادة النهاردة يا .. يا إكسلانس .

وخرج الطبيب من الحجرة تسبقه حلقات دائرية من دخان سيجارته. وأنتقل المأمور فى خفة نحو النافذة المطلة على فناء السجن . وأدار مقبضها فى بطء وحذر ،كأنما يريد أن يحول ما أمكنه بين ضجيج ترك .. ترك .. ترك وأذنيه . وانفرجت النافذة عن ثغرة ضئيلة سمحت لعينى المأمور أن تبصر كل شيء بالفناء .. كان هناك بعض المساجين الهزال الأجساد جالسين القرفصاء أمام منضدة صغيرة ، وضعت على عتبة باب العيادة .. وهى حجرة متوسطة الحجم طليت بالجير الأبيض من الداخل والخارج ، ورسم على جانبها الأيمن هلال أحمر . وهذا الهلال هو كل ما يوجد بينها وبين الطب والتطبيب من علاقة .

والعيادة لا تبعد عن نافذة المأمور بأكثر من مترين،ولذلك استطاعت

إذناه بالتعاون مع عينيه ملاحقة كل حركة وكلمة رغم أصوات ترك .. ترك .. ترك .. التى لا تهدأ ..

ورأى المأمور الطبيب يخطو منتشياً نحو العيادة فيحييه الباشتمرجى بانحناءه من رأسه . ويسرع التمرجى المساعد إلى المقعد فينظفه بقطعة من قطن لا تزال بها مسحة من بياض . ويجلس الطبيب وهو يسأل :

— فين كشف العيادة ..

وفى الوقت الذى كان الباشتمرجى يتقدم إليه بالكشف حدث المأمور ذاته « بقى ده دكتور بالذمه .. هيه .. قاعد على الكرسى زى عزرائيل تمام. »

ونادى الطبيب المريض الأول، فوقف فتى ضامر الجسم وكأن أطرافه من البوص الرفيع . وطلب منه فى صوت آمر أن يلف حول نفسه قليلا ففعل الفتى فى استكانة. وعندئذ تسآل الباشتمرجى فى لهجة روتنية :

— أبيض أو لحلحال يا دكتور ..

— لا .. ده عايز علاج تانى ..حطه فى الشمس شويه

وما أن انتهى الباشتمرجى من وضع الفتى بجوار الحائط تحت أشعة الشمس حتى قال للدكتور بنفس اللهجة الروتينية :

— الباقى عادى يادكتور ..

وعندئذ انتفض الطبيب واقفاً . وطلب من المساجين المرضى أن يقفوا فى صف أفقى ، فما أن انتظموا حتى أخذ يشير بسبابته اليمنى إلى الواحد منهم تلو الآخر وهو يردد موجهاً الكلام إلى الباشتمرجى :

— لحلحاح .. أبيض .. أبيض .. لحلحاح .. أبيض .. لحلحاح .. لحلحاح ..

وما أن استقرت سبابته على المريض الأخير حتى تضرع هذا إليه :

— ياسعادة البيه ربنا يطول فى عمرك .. أنا أخدت أول ٠أول أمبارح اللحلحاح وما نفعش .. إعمل معروف ..

وصرخ فيه الدكتور:

ـ طيب وساكت ليه ياغبي .. إديله مزيج أبيض يا باشتمرجي ..

وحين انتهى من ذلك أخرج من جيبه قلمه الذهبي، ووقع به على الكشف بما يفيد « إجراء اللازم وتنبه على الباشتمرجي بمراقبة العلاج » وتحرك للانصراف ..

وفى هذه اللحظة دخل الشاويش شعبان حجرة المأمور عجولا متهلل الوجه دون أن يؤدى التحية الرسمية، ويلوح بخطاب فى يده صائحاً :

ـ جواب المصلحة ياسعادة البيه .. جواب المصلحة ..

وتعثر المأمور وهو يقوم من مقعده . وترددت صيحة شعبان «جواب المصلحة .. جواب المصلحة» فى كل أرجاء السجن .. فى الإدارة . وعنابر المساجين . وزنزانات التأديب .. والمطبخ .. والمغسل ..

ودخل الطبيب حجرة المأمور وحاول أن يلتقط الخطاب من يده. ولكن المأمور منعه فى عنف وارتباك وأخذ هو يفضه فى حرص بالغ . وكان السجن كله قد سكن تماماً كأنه القبر خلى من كل حياة ..

ونشر المأمور الخطاب قرب عينيه . وبدأ بقراءة كلمة «حضرة ..» ثم راح يزوم ملتهماً الكلمات بطريقة غير مفهومة ثم استأنف القراءة فى تأن وصوت واضح النبرات « .. ونبلغكم أن تأشيرة طبيب السجن ناقصه لأنها لم تبين عدد الأقراص المطلوبة من حبوب السلفا والأسبرو فنرجو موافاتنا ببيان ذلك . »

ورمى المأمور الخطاب إلى الطبيب .. وهو يقول له فى شماتة .. «التأشيرة ناقصه يا إكسلانس .. هيه .. يعنى الكمال يبقى فى الملحوظات إياها وبس .. هيه .. رجعنا لدوشة الدماغ واللى كان كان .. »

ومرت لحظات قصار كان مضمون الخطاب قد تسرب فيها إلى علم المساجين . وزأرت من جديد أصوات ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .. ترك .

سماعيه

كان إسمه الرسمى المسجل بدفاتر السجن والمكتوب بمداد أحمر باهت فى أعلى « التذكرة » المثبتة بباب الزنزانة رقم عشرة بدور سبعة « اسماعيل محمد الخضرى » . لكنهم — أقصد كل من اتصل به فى حياته الطليقة أو تلك التى قضاها خلال الاغلال — لم ينادوه يوما إلا « بأبى السباع » .

وبالرغم من أن «أبى السباع» كائن حى.. يعيش ويتنفس ويدخن ويثرثر . وتستطيع بكل سهولة أن تلمسه وتتحدث إليه، إلا أنه لو حدث وصافحته مرة ، تحاشيت طوال حياتك أن تكرر ذلك مرة أخرى . فان يدك عندما تغوص فى راحة يده الخشنة، تحس وكأنها قد انطبقت على ثمرة من ثمار التين الشوكى تحيط بها عضلات ضاغطة فى قوة لا عهد لك بها فكأنها من حديد . وتحاول أن تخلص يدك بكل ما أوتيت من إرادة حب الحياة ولكنك تفشل . فتتأوه لحظات وتئن أخرى ثم تصرخ . وعندئذ فقط يفرج « أبوالسباع » عنها وقد احتبس الدم فى مواضع متفرقة منها وانبعثت من فمه الواسع ضحكته التقليدية المتكسرة إلى ثلاث أو أربع نغمات متفاوتة الرنين تصاحبها العبارة التى لاتفارق لسانه :

— أيووه يا أولاد .

فهو يلفظها حين يصحو . وحين يتأهب للنوم . وساعة غضبه . وخلال انفعالات سروره .وأثناء مناقشاته . وبعيد فترات الصمت المطبق التى كثيراً ما كانت تنتابه ..

والذين اتصلوا بأبى السباع يوماً أو عاشوا معه ولو ساعات يسيرة يروون عن شخصيته وتصرفاته الأساطير . .

يقسم بعضهم بالله وجميع الأنبياء..وأحيانا بقبور الآباء والأبناء،أنهم رأوا بعيون رؤوسهم أبى السباع عندما كان جندياً حديثاً بالجيش . ووقع اختيار أحد الضباط عليه ليكون « مراسله » خاصاً له،يقوم على خدمته المنزلية لكنه رفض وأصر الضابط على طلبه وتمادى أبى السباع فى رفضه . وكانت حجته فى ذلك أنه جاء من قريته ليغدو جندياً لا خادماً . وثار الضابطوانطلقتشفتاه بوابل من السباب ويداه باللكمات الهوجاء.ومع ذلك ظل أبى السباع فى مكانهصامداً بجسده القارع المليىء وكأنه تمثال من صخر البازلت،يواجه طفلا كثير الصخب .واستمر الموقف على هذا الحال بضع دقائق تجمع خلالها عشرات من الجنود والضباط،الأمر الذى زاد من هياج الضابط. فاختطف بندقية من أحد الجنود القريبين منه وحاول أن ينهال بمؤخرتها على رأس أبى السباع . غير أن هذا الأخير كان أسرع منه فانتزع البندقية وفى لحظة واحدة كانت قد تهشمت فوق ركبته إلى أجزاء متناثرة.. وقدم أبوالسباع للمحاكمة أمام مجلس عسكرى بتهمة مخالفته للنظم العسكرية وإتلافه « لأسلحة أميرية » . وكان كل الدفاع الذى أبداه أبى السباع عن نفسه كلمتين اثنين : « أنا مظلوم » . صدر بعدها الحكم بسجنه تسعين يوماً .

وفى الصباح التالى للمحاكمة ، تفقد الحراس الزنزانة التى أودع بها أبىالسباع فوجدوها خاوية إلا من قضبان الحديد السميكة التى كانت تسد فراغ النافذة .

ويتطوع جمع آخر من الناس فيجعلون من هذا الحادثتاريخا لبداية الحياة التى عاشها أبىالسباع عدواً للقانون والحكومة ..

ويروى بعض ثالث قصة أبىالسباع حينما اعترض ذات مساء،على الطريق الزراعى،سيارة «صفوان بيه» صاحب الضيعة المترامية الأطراف

التى تضم قريته الصغيرة وثلاث أخريات بكل مافيها من أراض وزروع وحيوانات وبشر ..

وكان « صفوان بيه» كعادته ، يجلس فى وقار بين حراسه المسلحين منتفخاً كالديك الرومى وسط مجموعة من الدجاج .

وحاولت السيارة أن تخدع أبى السباع فهدأت من سيرها خوفاً من طلقات رصاصه التى لا تخيب . وما أن اقترب منها حتى شرعت فى العودة إلى سرعتها ، ولكن يدا أبى السباع تعلقت بمؤخرها وجذبتها إلى الوراء بضع خطوات فتوقفت تماماً رغم أن صوت الماكينة الصاخب ودوران العجلات الأربع فى الهواء دون حراك كانا يدلان على مبلغ ما يبذله السائق من جهد جهيد لتسيير العربة .

وغادر صفوان بيه وحراسه السيارة خوفاً من أن ينفذ أبو السباع تهديده بدفع العربة إلى الترعة .. وبضربات خاطفة سريعة من عصاته الغليظة السوداء التى يطلق عليها اسم « الحاجة » أطاح بكل ما كانت تحمله أيدى الحراس المرتعشة من أسلحة ووقف « صفوان بيه » ذليلا فارقته النفخة وغاض الدم من وجهه فصار وكأنه زهرة كبيرة من زهور البرسيم الصفراء التى غطت الحقول المجاورة . .

ويحلو للرواه أن يسجلوا الحديث الذى دار بين صفوان بيه وأبى السباع على نحو غريب ، فصفوان بيه يتلعثم لسانه بكلمات خفيضة :

— مرحب .. مراحب يا ابو السباع ..

ويصمت أبو السباع دون جواب ويظل يحرك « الحاجة » بين أصابع يده اليسرى .. ويتوسل «صفوان بيه» :

— يا أبو السباع .. اعمل معروف أنا صاحب عيال .

ويأتى صوت أبو السباع خشنا :

— ولما انت خايف على عيالك .. خاف كمان على عيال الناس .

— عيال الناس على عينى وراسى .

ـ لا ياسيدى خليهم بس على جيبك .. إصرف للشغالة اللى بيموتوا ضنى فى أرضك،أجرتهم .. يأكلوا بيها عيالهم .
ـ حاضر . حاضر . فورى .. فورى يا أبو السباع .
ـ وانا عايز أجرتى .. أجرة الحكاية دى .
ـ أ .. أج .. أجرتك كام .
ـ خمسين جنى فورى .
ـ مـ .. مـ .. مش كفاية تلاتين .
ـ قلت خمسين .
ـ حـ ... حـ ... حاضر .. حاضر .

ويخرج صفوان بيه حافظة نقوده وينتقط منها بعض الأوراق المالية ويسلمها بأطراف أصابعه إلى أبى السباع الذى يدسها بين طيات ثيابه . وتتحرك « الحاجه » فى يده تدفع صفوان بيه وحراسه واحداً إثر واحد إلى السيارة التى تهب فجأة من مكانها كالريح العاتية مخلفة وراءها غباراً كثيفاً تنبعث من خلاله ضحكة عالية متقطعة الرنين وصوت أجش يصرخ فى مرح :
ـ أيووه يا ولاد .

والحق أنى لا أستطيع تحديد مدى ما تحمله هذه الأساطير من حقائق وما يشوبها من خرافات . على أنى كنت شاهد رؤيا لواقعة معينة . فقد حدث يوماً أن أمسك أبو السباع بقطعة نقود من ذات القرشين بين أصبعى السبابة والإبهام من يده اليمنى ، وأعمل فيها الضغط دقيقتين أو ثلاث فانكسرت إلى جزئين . وأذكر أننا يومها وقفنا ـ مساجين وسجانه ـ حول أبى السباع صامتين ذاهلين . وتجرأ أحد الجنود فأخرج قطعة نقود أخرى من جيبه رغم مخالفة ذلك للتعليمات ، وطلب إلى أبى السباع أن يجرى عليها

نفس التجربة . وطاف بذهنى وأبى السباع يحمل فى راحة يده جزئى القطعة الجديدة والعيون الجاحظة تبرق حوله فى لمعان رهيب.. صوراً مشوشة لكل ماقرأته وسمعته عن آلهة القوة والبطش فى أساطير اليونان والرومان القديمة ..

ومع الزمن صار معروفاً أن للسجن مديران ، أحدهما الموظف العمومى الذى يرتدى السترة العسكرية الصفراء بكل ماتحمله من نجوم وتيجان وأزرار نحاسية براقة . ويجلس إلى مكتبه بالإدارة يوقع الأوراق ويحتسى القهوة ويدخن الغليون ويطالع الصحف .

والآخر « أبوالسباع » .. العملاق الذى يحس الناظر إليه أنه قد أدخل بصعوبة فى لباس السجن الأزرق ، فكما القيمص لم يغطيا أكثر من ربع كل ذراع ، وقد كان مفروضاً أن يغطيا الذراعين حتى المعصمين . ورجلا السروال قد إمتدا بالكاد إلى ماتحت الركبتين بقليل . وبان الرداء بالجسد الذى يحتويه غريباً شاذاً فكأنه قد تم لصقهما بشىء من الصمغ أو الغراء.

ولم تكن الزنزانة التى استقل بها أبوالسباع تفترق كثيراً عن محل بقالة صغير كذلك الذى نصادفه فى القرى أو الأحياء الفقيرة من المدن .. فهى ممتلئة بعلب السجاير والكبريت والجبن والحلاوة والشاى والسكر والبن .. وهذه كلها « ممنوعات » تحرمها لائحة السجون . ورغم ذلك فان أوراق التمام التى يوقعها المأمور كل يوم بعد إجراء عملية تفتيش لجميع الزنزانات كانت تنتهى بعبارة « وبعد التفتيش الدقيق لم نجد بالسجن أى ممنوعات من أى نوع كان .. »

وكان محل بقالة أبى السباع يتعامل مع جميع المساجين بأسعار حددها بعدما راعى فى ذلك أن تكون أقل ارتفاعا من تلك التى تسود التجارة السوداء ، والتى يباشرها كثير من السجانة فى الخفاء .

ومن هنا كانت المنافسة بين أبي السباع وتجار السوق السوداء بالغة العنف والقسوة. ولكنه كان الرابح دائماً. وكان في كثير من الأحيان يتدخل تارة بيديه وأخرى بواسطة «الحاجة» ليحمي عملاءه من بطش منافسيه عندما يحاولون تطبيق نصوص اللائحة عليهم.

ولم تفلح البسمات والتحيات المتبادلة بين أبي السباع وسجانيه أن تخفف من حدة العداوة الحقودة التي ترتع في القلوب، وتجعل الصدام بين الطرفين ضرورة لابد منها. ولقد كان هذا الصدام المنتظر يتشكل في صورة خطط وآمال متباينة، ظلت دائماً حبيسة الرؤوس والصدور المغلقة.

ثم .. وقع فجأة ..

كان ذلك خلال نوبتجية ضابط شاب عين حديثاً بخدمة السجن. وكان عليه في ذلك المساء أن يشرف على عملية التمام والتفتيش وفقاً لما جاء باللائحة. وبدأت العملية في هدوء وسلام حتى وصلت إلى الزنزانة رقم عشرة بدور سبعة ففوجيء الضابط بجثة ضخمة تسد عليه باب الزنزانة وتمنعه من إجراء التفتيش قائلة:

— اللائحة ملهاش أكل عيش هنا.

وكأنما قد نزلت الصاعقة على رأس الضابط الشاب. وشعر بأن كرامته قد جرحت أمام مرؤوسيه من السجانة، في اليوم الأول الذي يبدأ فيه عمله. فصمم على أن يستميت في الذود عنها. وارتفعت يده وهوت بصفعة مفاجئة على وجه أبي السباع فبرقت منه العينان واحتقن الدم في الوجنتين واصطك الفكان وكأنهما صخرتان وقعت أحدهما على الأخرى. وتقدم بعض السجانة فألقوا بكلمات هامسة في أذني الضابط. ولكنهم تراجعوا عنه مذعورين عندما صدرت منه فجأة آهة ألم، لم ينجح في كتمها. وشرد بهم الخوف والهلع .. ثم تنبهوا إلى أنفسهم وواجبهم، فساعدوا الضابط على الوقوف بعد ما كان قد تكور على الأرض نتيجة الأصبع الذي غرسه أبو السباع في بطنه، رداً على الصفعة. وأتى الضابط بعد ذلك حركات

مترددة حائرة فى كل اتجـاه ، غادر بعدها المكان يتبعه الجنود وقد شق السكون الذى شمل السجن،الضحكة العالية المتقطعة الرنين يصاحبها الصوت الأجش :

— أيووه يا اولاد .

فتعالت صيحات وهتافات المساجين من كل جانب ..

ومرت ساعات.. ساعات سجينة.. كان الليل قد غمر الكون بسواده الحالك وغرق السجن كله فى النوم ولم تسمع فيه إلا حشرجات الشخير . وكان سهلا حينذاك أن يذوب فيها حفيف أقدام عارية تسعى فى الظلام ثم راحت تتجمع فى النهاية عند الزنزانة الوحيدة المفتوحة . وفى لمحة كانت الزنزانة قد تكدست بعشرات من السجانة المسلحين بالعصى والقيود والسلاسل الحديدية والمسدسات والبنادق . واختلطت الصرخات بطلقات الرصاص بصليل القيود والسلاسل بخوار عنيف بآهات الألم بقرقعة عظام . وشملت الضجة السجن كله ومرت ساعة . اثنتان .. ثلاث .. صاح بعدها الباشسجان فى صوت مرتجف :

— عنبر كله ينام .. أبو السباع انتهى . .

وسكت لحظة ، ليزدرد أنفاساً لاهثة ،وقال فى عجلة :

— كان عاوز يقتل حضرة الضابط ..

وغدا السجن مقبرة موحشة خلت من كل حركة وصوت إلا حفيف السكون .

واتخذت إدارة السجن الإجراءات المعتادة .. فحضر المأمور وضباط السجن وجنوده ، وكان البعض منهم يتبادل التهانى فى حين كان ممثل النيابة العامة يقوم بالتحقيق .

وعند ما قام الطبيب الشرعى بتشريح جثة أبى السباع ،عثر فى أمعائه الغليظة على بلونة جلدية رقيقة بها ورقة مالية من فئة الخمسين جنيها وخطاب على ورقة خضراء تناثرت عليها بقع من الزيت و .. هذه الكلمات :

« ياحفيظه .. أرسل لكى الخمسين جنيه دول علشان تتعالجى كويس عند أحسن حكيم . وتتغذى كويس فراخ وحمام . لأن عياكى يخف بكده . ومتخافيش أبداً . وإنشا الله تكونى اشتريتى الدوا والحقن بالفلوس اللى بعتها لكى الشهر اللى فات. وحافظى على صدرك من البرد والهوا . ياحفيظه ما تنسيش تزورى أبو المرسى العباس وتقرى الفاتحة لنا الاتنين .. سلامى الكتير قوى لجمعه ورمضان وخديجه والجماعه كلتهم .

المحب لكى : سماعين»

يا حفظه ارسل لكى الخمسين جنيه
دول علشان تتعالجى كويس عند
احسن حكيم وتتغذى كويس
فراخ وحمام لأن عيالك بخير
بكره ومتخافيش ابدا وانشاالله
تكونى اشتريتى الدوا والحض بالفلوس
اللى بعتهالكى الشهر اللى فات وحافظى
على صدرك من البرد والهوا
يا حفظه متنسيش تزورى سيدك
ابو المرسى العباسى وتقرى الفاتحه
لنا الاتنين
سلامى الكتير قوى لجمعه [illegible]ضان
والجماعه كلهم
المحب لكى سماعين





كان المساجين يتأهبون كعادتهم كل يوم للقيام «بطابور الصباح» .. يخرجون فى نظام عسكرى إلى فناء السجن الداخلى .. يتسكعون فى ارجائه بعضاً من الساعة تحت إشراف شاويش العنبر –عبد القادر – رجل سمين . عريض الجبهة. جاحظ العينين . طيب القلب . دائب التشويح بيديه ...

وأخذ الشاويش ينادى على أسماء المساجين بطريقته السريعة ، ويتمم على الشخصيات بنظرات خاطفة تتلاحق فى كل مرة تتناثر فيها كلمة « نعم » أو « أفندم » من الشفاه ..

ونادى الشاويش :

– سعيد البرماوى ... سعيد الـ ...

ولكن أحداً لم يقل «نعم» أو « أفندم» . وقضم الشاويش النداء وتلفت المساجين بعضهم إلى بعض . وتطوع أحدهم فصرخ :

– سعيد .. سعيد ..

وقال الشاويش فى حده،وهو يرسل نظراته الفاحصة فى كل ركن من العنبر :

– بقى ده شغل بذمتكم ...

وانقسم المساجين فريقين أحاط أحدهما بالشاويش يهدىء من ثورته ، فى حين راح الفريق الآخر يفتش عن سعيد داخل زنزانات دور ثمانية ...

وأخيراً عثر على سعيد . وجاء زملاؤه به مجروراً من ذراعيه إلى الشاويش عبد القادر ،فسدد إليه نظرة طويلة امتزج فيها العتاب بالغضب ثم استأنف النداء :

— سعيد البرماوى ...

وتلعثم لسان سعيد فى حلقه هنيهه وهو يلفظ كمخمور :

— نـ .. نـ .. نعم .

وتجاوبت صفوف المساجين بهمسات مرحة ، عكست آثارها على وجه الشاويش فى شكل ابتسامة صغيرة . واستأنف تلاوة الأسماء حتى إذا ما انتهى منها زفر من صدره زفرة حارة وهو يحمد الله مرة ثم يكرر الحمد مرات عديدة ..

وتقدم يهبط الدرج إلى فناء السجن ومن ورائه المساجين يتبادلون الأحاديث. وكادسعيديتعثر فى إحدى الدرجات، وهو يزاحم زملاءه ليلحق بصديقه فوزى .. القصير ذى الرأس الضخم والشارب الناشذ الشعرات..

وأفلح سعيد فى أن يمسك بذراع فوزى عند نهاية السلم وعندئذ ضغط عليه عدة ضغطات وهو يقول بلهفة :

— اكتشاف يافوزى ... اكتشاف ياخويا ...

وفاجأت الكلمات الغامضة فوزى فردد لسانه :

— اكتشاف ... اكتشاف إيه ياسيدنا .. انت لسه نايم واللى إيه .. الساعة قربت على تمانية .. اصحى اعمل معروف احسن حاننافش مسألة الحفلة اللى حانعملها للزملا الجداد الليلة الجاية ..

— تعرف أن حظهم عال .

وردد فوزى دهشا :

— حظهم عال ! حكايتك إيه النهارده ياسى سعيد ..

وسدد سعيد نظرات ثابتة إلى فوزى . ولفظ فى وقار دلت حركة تذبذب الحاجبين وارتعاشة الجفنين على أنه مصطنع اصطناعا :

ـــ حكاياتى إيه ! أنا مكتشف .. وتقدر تقول مخترع ..

ومط فوزى شفتيه . وغرس أصابعه النحيلة فى شعر رأسه الفاحم وهو يقول فى لهجة ساخره :

ــ كده .. بقى مكتشف .. هيه .. مخترع .. تكونش حضرتك خرستوف كولومبس . ابن بطوطه . نيوتن . انشتاين ...

ولم يتحرك سعيد . وظل مسمراً فى مكانه وعلى شفتيه بسمة من يحتفظ بسر هائل . وحركة الذبذبة والارتعاش تلهب حاجبيه وجفنيه . وضاق فوزى بهذا الغموض الذى يثيره صديقه فصرخ فى وجهه :

ــ بقى اسمع .. إنت باين عليك عيشة الزنزانة أثرت فى عقلك .. أنا لابد أبلغ اللجنة العامة بحالتك ..

وهم فى حركة تهديدية لأن ينفذ قراره ، ولكن سعيد سارع بجذبه ناحيته ووضع فمه فى أذنه اليمنى وراح يصب فيها كلمات هامسة ..

وفى خلال هذا كانت قسمات وجه فوزى فى انفعال دائم ... تنبسط جبهته لحظة ثم تتجعد وتتسع حدقة عينيه ويعلو أحد الحاجبين عن الآخر ، ويلفظ لسانه بين الحين والحين :

ــ مش معقول ..

فيرد سعيد بصوت مسموع :

ــ بقول لك أنا شفت بعينى ..

ــ وكل حاجه تبان .. قصدى يعنى تتشاف بوضوح ..

ــ زى ما انا شايفك دلوقت ..

ويستمر الهمس والتعليقات المتقطعة السريعة بين الصديقين ..

ويمر زميلان من المسجونين بهما ، فيثيران انتباههما ويسألانهما أكثر من سؤال ، عن الحفلة المنتظرة ، والمفاجآت التى يعدانها ، والنكات التى سيثيران بها الضحك . ولكن سعيد وفوزى لا يجيبان على سؤال وتنتهى عملية الهمس .

ويعتدل سعيد ليرى تأثير كلماته فى فوزى الذى يصمت بعض الوقت، قبل أن يقول :

— إذا كانت الحكاية كده صحيح .. ده يبقى فعلا اكتشاف .. اكتشاف خطير ..

ويقترح سعيد على فوزى أن يتسللا دون أن يشعر بهما أحد ليعاينا الاكتشاف بنفسيهما .. ويوافق فوزى بحركة مقتضبة من رأسه فيتحركان فى بطء وحذر بضع خطوات .. فاذا ما قاربا باب العنبر اندفعا داخله فى غفلة من أعين الشاويش والزملاء ، وصعدا الدرج ركضاً حتى وصلا إلى زنزانة سعيد بالدور العلوى ، وانحرفا إلى اليسار فى الطرقة الموصلة بينهما وبين الزنزانة المقابلة . ووقف سعيد أمام الجدار ونبش بأصابعه ثقباً صغيراً بين لوائح من الخشب ، سدت بها نافذة ، كانت تطل فيما مضى من زمان على مكان قفر ، عمر فيما بعد بسجن النساء ..

وقوس سعيد ظهره. وأغمض إحدى عينيه ونظر بالأخرى خلال الثقب بعض الوقت ثم رفع رأسه قائلا بلهفة :

— شوف يا فوزى .. شوف ..

وأرسل فوزى نظرة طويلة من خلال الثقب فانفرجت أساريره وهو يرى لفيفاً من المسجونات يلبسن الخيش الأبيض ، يرحن ويجئن .. سمينات ونحيفات .... قصيرات وطويلات ... « من كل نوع » كما قال لسعيد .. وكانت هذه أول مرة تقع فيها عينا فوزى على « إنسانات حية تتحرك » منذ ثلاث سنوات قضاها وراء القضبان المعتمة ... وتصبب العرق من جبينه . وشاعت الحمرة على وجهه .. وانبعثت الحرارة فى مؤخرة رأسه وكل أجزاء جسده. ورفع عينيه عن الثقب ولكز فى نشوة بطن سعيد قائلا :

— دى سيما ..

ثم أسرع مرة أخرى فوضع عينه على الثغرة وأطال النظر والبحلقة وجسده يتحرك بلا انقطاع ذات اليمين وذات اليسار كرقاص الساعة .. وفجأة هتف :

– اسمع يا سعيد ده فيه واحده حبلى .. تعالى شوف ..

وترك مكانه لسعيد ، ولكن الأخير قال دون أن ينظر من الثقب :

– أنا شايفها بقى لى تلات أيام .

– الله .. الله .. بقى سعادتك مكتشف الحكاية من زمان ومخبى . آه يافردى يا أنانى ..

– وبعدين فى الإتهامات دى . أنا مرضتش أبلغك إلا لما لقيت المسألة تستاهل ..

وزغر فوزى فى وجه سعيد وهو يتمتم ساخراً :

– تستاهل ؟ تستاهل قوى ياس سعيد .. تستاهل ؟ تستاهل جداً .. وفرك يديه وراح من جديد يرسل نظرة تلو أخرى من خلال الثقب .

اجتمعت اللجنة العامة التى انتخب المسجونون اعضاؤها من بينهم، بفناء السجن لتناقش « اكتشاف سعيد البرماوى » ..

وتربع الأعضاء الثمانية أرض الفناء الرملية وأخذوا يستمعون لتقرير فوزى عن الاكتشاف .. واستعاذ ثلاثة منهم بصوت مسموع، الله من من الشيطان الرجيم عندما قرر فوزى أنه رأى بوضوح أجساد المسجونات فى شعورهن المسدلة . وأذرعتهن البضة .. وسيقانهن العارية . وحاول الخمسة أعضاء الآخرين أن يخفوا البسمات التى ساحت على وجوههم .. واقترح أحدهم أن يستغل هذا الأكتشاف فى الترفية عن المسجونين فيوكل إلى إدارة خاصة تقوم بتنظيمه كسينما . وتسمح للمسجون بأن ينظر من خلال الثقب لقاء نصف قرش لكل فترة محددة من الوقت . . على أن تخصص الحصيلة لشراء ما يلزم الجماعة من كتب وأدوية وسجاير .. واعترض الثلاثة الذين يعوذون بالرب دائما من الشيطان ، على السماح بكشف العورات وارتكاب المنكرات ..

وثارت مناقشات حادة بين الأعضاء . وكان سعيد على بعد خطوات من الإجتماع ، ينتظر قلقاً البت فى مصير اكتشافه .. وقد انتشرت فى المكان مجموعات صاخبة من المساجين الذين عرفوا بأمر الاكتشاف .. وأخيراً ارتفع صوت الرئيس يطلب من أعضاء اللجنة التصويت على اقتراح استغلال الاكتشاف كسينما .. ووزعت ورقات بيضاء صغيرة عليهم وكان على مؤيد الأقتراح أن يسجل بالورقة كلمة «نعم» .. وإما المعارض فيكتب كلمة «لا» .. وحينما تمت عملية التصويت نادى الرئيس المساجين جميعاً فى اجتماع عام . فتجمعوا فى حلقات دائرية حول اللجنة العامة وراح الرئيس يفرز أوراق التصويت .وحينما فض أول ورقة قرأ بصوت مرتفع :

– لا .. ثم لا .. ثم لا .. ثم لا ..

وصاح أحد المسجونين :

– يا للرجعية ..

ودارت الهمسات تطن فى المكان . ولكن الرئيس طلب من المجتمعين الصمت والهدوء وعدم التعليق . واستمر فى عملية الفرز التى أسفرت فى النهاية عن تأييد ستة أعضاء لإستغلال الأكتشاف ضد اثنين ..

وصرخ أحد المساجين .. «وتالتهم فين» .

وتبادل الثلاثة الخائفون من الشيطان الرجيم ، نظرات خجولة . وهلل المساجين للنتيجة . وأعلن أن تنظيم السيما قد وكل إلى الزميلين سعيد وفوزى .

ومنذ ذلك اليوم اطلق المسجونون على سعيد لقب «المكتشف العظيم» وسميت الطرقة التى تقع فيها النافذة ذات الثقب الصغير « بالسيما » وغدا المسجونون يضحون بفترات طوابير الراحة ، فيقفون صفوفاً طويلة كى يستمتعوا لحظات بالنظر خلال الثقب مقابل نصف قرش للفرد عن كل دقيقتين ، يدفع إلى فوزى «مدير السيما» . واتخذ فوزى مظهر رجل

أعمال نشيط ، لكنه كان يجد صعوبة كبيرة فى أن يزحزح المتفرج عن الثقب بعد فوات الدقيقتين .. فكان يبدو أن جسده فى تقوسه قد سمر بالنافذةفصارا معاً كياناً واحدا . وكان الزملاء الذين ينتظرون فى لهفة دورهم خلفه ، يتصايحون ويتصارخون ويضربون الأرض بأقدامهم فى عصبية..وأحياناً تتحرك ألسنتهم بكلمات حادة اللهجة والرنين :

– يا أنانى ..

– النظام يازميل ..

– شده يافوزى .. شده ..

وغالباً ما كان فوزى يقوم فعلا بمجهود بدنى ، ليرفع الجسد المتقوس عن ثقب النافذة ، فاذا بعينيه زائغتين وأحياناً دامعتين وقسمات الوجه قد شابتها انفعالات ذاهلة .. وربما زفر الواحد آهة أو آهتين عميقتين قبل أن يفيق إلى نفسه . وينطلق راقصاً طروباً إلى فناء السجن يحدث زملاءه عما شاهده من « حتت حقيقى من لحم ودم » بعضها « أبيض زى القشدة » وبعضها «أسمر وجميل» وواحده « بالله العظيم ما تقل عن مارلين مونرو» وأخرى « أم أربعة وأربعين بالتمام والكمال » ...

وتحتدم المناقشات بين الزملاء حول مشاهدات السيما .. فيتعصبون للمسجونات فرقاً عديدة .. كل واحد منهم قد ترك عالم الحرية والأهل والأحباب والأصدقاء إلى الأصفاد والقيود ، وحيداً إلا من آرائه ومبادئه فى الحياة واصداء رتيبة للعلاقات الإجتماعية التى ربطته مع الناس خارج الأسوار والقضبان .. الأم والأب والأخوة والزوجة والأولاد والحبيب ورفاق العمر .. فينعكس كل هذا المزيج على المناقشات دون ما شعور أو افتعال ..

على أن أكثر المناقشات مبعثا للانقسام والخلاف كانت تلك التى تدور حول السجينة الحبلى .. هل ستلد ذكراً أم أنثى .. وما هو المطلوب الآن رجل أم امرأة .. وهل هناك فرق بين الرجل والمرأة فى المجتمع الحديث ..

وإذا جاء ولداً فماذا يسمى: سعيد .. فوزى.. ستالين .. أبوبكر الصديق.. سعد زغلول .. غاندى .. جهاد .. آمال ..

ولكن قد تكون بنتاً تسمى أنوار مثلا .. حرية .. جان دارك .. شفيقه .. أم صابر .. آنا .. ستهم .. ليلى ..

ولم يصلوا أبداً إلى نتيجة .. وما كانوا فى الحقيقة يريدون الوصول إلى نتيجة ما، حتى يظل الموضوع حياً مثيراً للجدل والنقاش .. غير أنهم اتفقوا بالإجماع على تخصيص جزء من حصيلة إيراد السيما لتقديم « هدية مفيدة » إلى المسجونة الحبلى .. ولم يعارض فى ذلك حتى أولئك الذين يزجون بأنف الشيطان الرجيم فى كل شيء ..

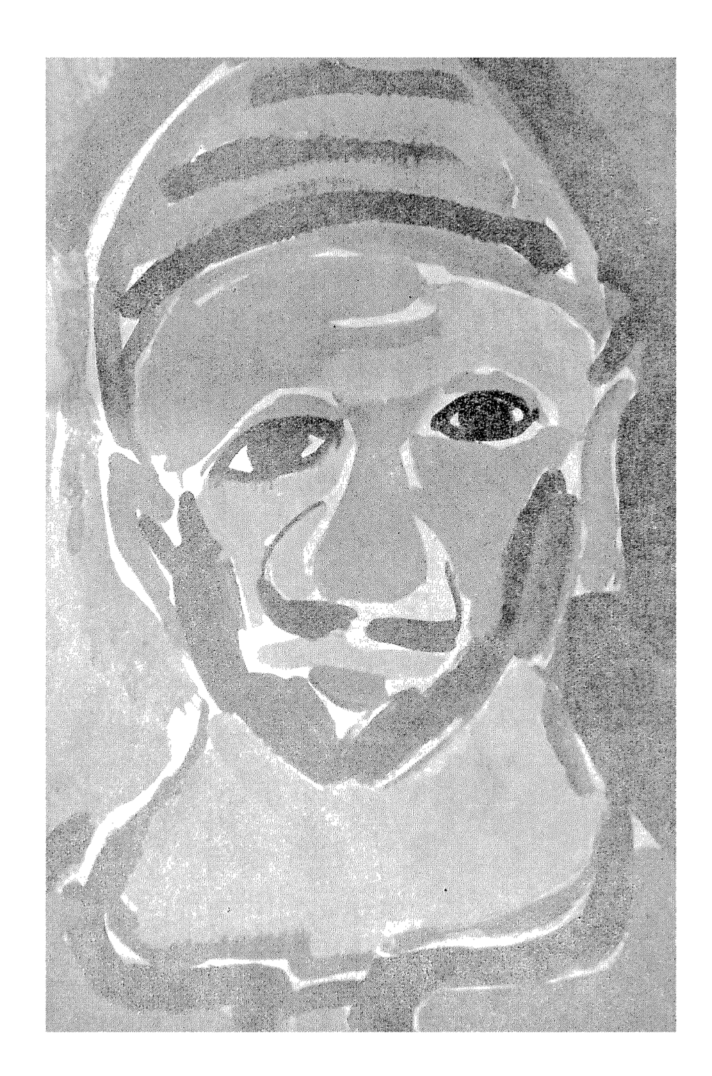
وفى هذه الأثناء كان نبأ اكتشاف السيما قد وصل إلى علم إدارة السجن. فرأت فى ممارسة المساجين لهذا النوع من الترفيـة اهداراً للنظم وحضاً على الفوضى وحرباً على الأخلاق .. والسجن بحكم القانون « دار تهذيب وتأديب وإصلاح» ..ووصفه الباشسجان صاحب الوجه الكشر المستطيل كمركب صغير ، بأنه «قلة أدب ومسخرة» . وقام ذات ليلة بسد ثقب النافذة بالأسمنت حتى إذا ما أصبح الصبح وعلم المساجين بالأمر ثاروا ثورة عنيفة.وطالبوا فى اصرار وهتافات عالية بسقوط الباشسجان وباعادة فتح ثقب السيما .. وأيدهم الشاويش عبد القادر فى ثورتهم سرا.. وقال لفوزى بصراحته الساذجة :

ــ اسمع يافوزى .. أنا موافق .. مفيش فعلا حل غير انكم تفتحوا السيما بأيديكم دلوقت .. وأنا بعديها أروح أبلغ المأمور عن هاذه المخالفة وأقول له : أنا ياسعادة البيه ما اضمنش هداوة المساجين بتوعى إذا قفل الباشسجان السيما تانى .. فيفرك فى راسه ويقول لى: والعمل ياواد ياعبدالقادر فأقول له : نصهين ياسعادة البيه .. نصهين أحسن .. ودول لسه شباب ياسعادة البيه ..

وأعاد المساجين فتح «السما» من جديد فى احتفال صاخب .. وهمس فوزى لسعيد وهو يقوم بعملية نبش الثقب بسلك نحاس مدبب :

ـ على رأى الشاويش عبد القادر .. نوسع الفتحه شويه علشان نبقى نشوف المناظر كويس ..

وتبادل الاثنان فى صمت بسمات مرحه .



اللومنجي

سرت إشاعة ذات صباح أن « أبو دراع » قد وصل إلى السجن ، وإن ضابط الليمان يسلمه للإدارة .

وتعلقت عيون المساجين بالباب الحديدى الصغير الذى يؤدى إلى غرف الإدارة المبنية بالطوب الأحمر فى لهفة غريبة ، كما لو كانت الإشاعة قد قلبتهم إلى أطفال صغار يعانون ألم انتظار ساحر سيبهرهم بألعابه . وتتابعت الدقائق تجر نفسها جراً كطابور طويل من السلاحف .. حتى إذا ما اكتملت الساعة ، تعبت الأنظار من التحديق ، وهاجت الأعصاب التى طال شدها ، وتجرأ أحد المساجين فتقدم من الباشسجان الذى كان يعبر الفناء وسأله :

– إلا صحيح يا حضرة الباشسجان الإدارة بتستلم أبو دراع..

ولفظ الباشسجان فى بلاهة هادئة لم تكن منتظرة منه وإن ارتاح لها السجين :

– أبو .. دراع ..

ومصمص شفتيه وحرك رأسه حركات دائرية .. وهو ماض فى سيره . وأيقن المساجين يومذاك أن الإشاعة لا ظل لها من الحقيقة .

غير أن الإشاعة عادت بعد أيام تقر فى آذان المساجين. وتؤكد أن السجن قد تسلم فعلا أبو دراع. وأن الإدارة تخبئه فى إحدى حجراتها مكبلا بالقيود

الحديدية الثقيلة خوفاً من محاولته الهرب . وكان أكثر المساجين تحمسا فى رواية الإشاعة ، وإذاعتها فى كل مكان ، سجين مقوس الظهر أفطس الأنف تقيل اللسان :

ـ أ .. أكيد استلموه . أ .. أقول لك إيه .. أ .. أنا مش عاوز أتكلم كتير .. أ .. استلموه وحياة من خلق الأرض واللى عليها .. لكن خافينه .. أصله يعرف العفاريت . حاكم أنا أعرفه .. أ .. أعرفه تمام . ده كان يقول لى فى اللومان أنت ابن أمى وأبويا .. حاكم أ .. أنا زيه برضه .. لومنجى .. آه .. »

ورغم الصعوبة التى كان يعانيها السجين فى تحريك لسانه بالحديث ، فقد كان يصر ، كلما رأى جمعاً من المساجين ، على التسرب إليهم ليحدثهم عن « أبو دراع » ابن أمه وأبيه ويؤكد ما يشار من إشاعات حول مجيئه إلى السجن .. حاكم هو يعرفه .. يعرفه تماماً ..

وعرف السجن كله أن « أبو دراع » نشأ فى إحدى قرى الصعيد شابا شريداً لا يعرف له أصل ولا فصل يتمتع بجسارة معنوية نادرة ، لم تصادق الخوف لحظة واحدة . بدأ حياته حارساً ليلياً فى منطقة مقابر القرية . وكان الوحيد الذى قبل شغل ذلك المنصب بعد أن أضرب الكثيرون عنه ، خوفاً من «عفريت عم عبده الأسود» ذى العيون التسع النارية الذى يحوم حول المقابر .. بعد أن قتل الجن صاحبه فى ليلة عاصفة منذ عشرات السنين ..

وأهله القيام بهذا العمل ليكون ـ فيما بعد ـ حارساً خاصاً لعمدة القرية .. الذى امتاز بالذكاء الخبيث وكثرة الأعداء ..

وفى ذات يوم طلب العمدة من « أبو دراع » أن يتزعم تنفيذ مؤامرة لحرق حقل قطن «بدر بيه » أحد الملاك الزراعيين بالقرية بعد ما رفض طلب العمدة فى أن يضم ابنته ذات الضفائر السوداء الطويلة إلى حريمه المكون من ثلاث زوجات .

وراوغ « أبو دراع » فى تنفيذ المؤامرة . وعلل ذلك بأسباب كثيرة . فهو حيناً لا يريد أن يصيب أحداً بشر . وهو حينا آخر يعتقد أن العمدة إنما أصدر أمره بحرق الحقل فى لحظة غضب ، وسرعان ما يعدل عنه عندما يرتد إلى حالته الطبيعية . على أن أهم هذه الأسباب فى الحقيقة هى تلك الحالة النفسية التى شمات أبو دراع وجعلته يروع داخل نفسه من مجرد تصور النيران تلتهم فى سواد الليل حقلا من القطن .

وألح العمدة فى تنفيـذ المؤامرة . ولم يستطع « أبو دراع » أن يفعل شيئاً فكان جزاؤه الطرد من الخدمة .

وذهب « أبو دراع » لبدر بيه وحكى له القصة كلها وطلب إليه فى استعطاف وحياء أن يلحقه بخدمته .

واستمع بدر بيه إلى « أبو دراع » طويلا وقد كان معروفاً بأنه « أكبر ودنى » فى القرية ولـكنه أعتذر عن إلحاقه بخدمته . وبرر ذلك بأن عليه أن يتصرف تصرف الأسياد . فالعـداوة التى بينه وبين العمدة ، أو بينه و بين أى سيد آخر من أسياد القرية لا يجب أن تشجع الصغار على التدخل فيها أو الأستفادة منها وإلا تبددت هيبة الأسياد .

وطرق «أبو دراع» أبواباً عديدة.. ولـكنها جميعاً صدته بجفاء . وحط به المطاف فى النهاية ، بدوار العمدة .. ذليلا يحمل فى كيانه ندماً ثائراً .. خفيراً يؤمر فيطيع ..وفى الليل لايبيت دون عشاء..

وتطورت آوامر العمدة من حرق الحقول وسرقة المواشى وتسميم الدجاج إلى .. سفك الدماء . وكان معروفاً أن «أبو دراع » هو آلة تنفيذ جميع مؤامرات العمدة ضد خصومه وضد الفلاحين . وكان موفقاً حريصاً فى «عملياته » لا يترك وراءه أثراً . وإن حدث وأخطأ فالعمدة يصلح الخطأ . والعمدة يزور المحاضر . والعمدة يؤخر إرسـال البلاغات إلى ما بعد إخفاء معالم الجرائم .

ويوماً بعد يوم لم يعد يروع «أبو دراع» فى شىء مناظر حقول القطن

والذره المحروقة أو الدم الأحمر المراق والرأس المشوه المفصول عن الجسد.

واقنع «ابو دراع» نفسه فى النهايه أن ما يقوم به من «عمليات» هو فعلا العمل الذى خلق من أجله كما أكد له الكثيرون .. وفى مقدمتهم العمدة نفسه .. وزاده يقيناً من هذه الحقيقة، التودد والاحترام اللذين صار يقابل بهما من جميع أسياد القرية .. حتى « بدر بيه » ذاته وكان قد حرق حقل قطنه .

وأصبح راضياً .. طعامه مضمون . طلباته لا يقفل فى وجهها أى باب فى القرية مهما علت عتبته . يتدثر بالصوف فى الشتاء ، ويزهو بالحرير صيفاً . والناس فى القرية يتناقلون عن شخصيته عشرات من الحكايات ويدخلون فى نسيجها الغريب من حوادث البطولة الخيالية . وفى جيبه المال الذى كان فى أغلب الأوقات يحسن ببعضه إلى فقراء القرية مبتسما ابتسامة راهبة عجوز لا تشك فى رضاء الله عن سلوكها .

وجاء الوقت الذى أحس فيه «أبو دراع» أن العمده يستغله، ولا يدفع له الأجر المجزى عن أعماله . وهناك من يلوح له بأجر مضاعف . وناقش الموضوع مع ذاته مناقشة تاجر لتاجر.. وانتهى إلى أنه صار من القوة بحيث يستطيع أن ينفصل عن العمدة دون ما خوف من بطش أو بطالة . ويدير أعماله مستقلا لحساب نفسه ولكل من يدفع الأجر المطلوب .

ونفذ «أبو دراع» فكرته . وكون عصابة ، أفلحت بحوادثها الدامية فى أن تشيع الإرهاب..ليس فقط داخل حدود القرية بل فى نطاق الإقليم الريفى كله . وصار غلمان القرية يباهون فلاحى القرى المجاورة بأن أبو دراع نبت من أرضهم .

وعاش « أبو دراع » مطارداً رسمياً من الحكومة .. من بوليسها وقضائها . ولكنها لم تجرؤ يوماً على القبض عليه لأن الأسياد الذين كانوا يحمونه ويخطبون وده، هم فى الوقت نفسه أسياد وأقارب الحكومة بل وأحياناً الحكومة نفسها . .

واتسعت أعمال «أبو دراع» وتفنن فى تنفيذ «مقاولاته» ولـكنه كان دائماً متواضعاً بسيطاً لا يغره النجاح ، ويعلن فى اعتزاز أن كل ما آتاه إنما هو من فضل الله . وكثيراً ما كانت تعتريه نوبة ضعف واستكانه ، فيرفع يديه إلى السماء .. ويغمض عينيه فى ابتهال .. وتتمتم شفتاه ببعض الكلمات المقدسة .. يضىء بعدها وجهه بالإبتسام ، ويشرع فى دراسة «عملياته» نشيطاً آملا . وقرر يوماً أن يشكر الله على نعمائه عليه فزور جواز سفر . وشخص إلى بيت الله بالأرض المقدسة وأدى فريضة الحج وعاد بعـدها إلى القرية ليستقبله سادتها على الحدود بالطبل والزمر .

.

وذات يوم جاءته امرأة فى ريعان صباها ترتدى ملابس الحـداد السوداء .. وعيناها الواسعتان منبعان لدموع ساخنة لا ينقطع مجراها . وراحت « تقاوله » على إهدار دم من رملها ويتم طفلها حين أودع رصاصاته فى صدر زوجها بسبب خلاف على قطعة أرض . ولما طلب منها معرفة قيمة الأجر الذى تحدده لهذه المقاولة دست يدها فى صدرها وأخرجت منديلا أسودا فكت عقدته بعناية فكشف عن منديل آخر أبيض اللون حتى إذا ما حلت صرته ، وضحت ربطة من ورق الصحف ، فضتها ، فبدت ورقة مالية قديمة من ذات الخمسة جنيهات .. وما أن رفعت يدها بها إلى «أبو دراع» حتى استغرقته لوثة عاتية من الضحك .. وشرع ينادى أتباعه ويلقى إليهم بقيمة الأجر الذى تعرضه المرأة فى كلمات متكسرة فيتجاوبون مع ضحكاته فى انطلاق مثير .. والمرأة ذاهلة حائرة .. وحينما هدأت الضحكات قال لها « أبو دراع » :

ـــ كلام أيه ده ياوليه .. هو أنا حا أدبح قط .. فرخ .. خروف .. ده راجل .. راجل ياوليه .. أقل ما فيها ميت جنيه ..

وصعقت المرأة ، وحاولت أن تساومه من جديد ولكن أتباعه أخذوا

يجرونها إلى الخارج وهى تصرخ به مستنجدة :

– بقى الفقير مايلقيش حد يأخذ بتاره يا أبو دراع ..

ورنت كلمات المرأة فى إذنى أبو دراع . وحاول أن يتخلص من تأثيرها فهز كتفيه فى استرخاء ، وأتبع الهزة بضحكة ذات صوت محبوس .. ثم راح يلعب الورق مع بعض أتباعه فى صمت وكأن شيئاً ما لم يحدث .

ومضى يومان، وفاجأته المرأة من جديد بجوار مقابر القرية ، وراحت تروى مأساتها مع طفلها.. وكيف أن زوجها لم يخلف أحداً يستطيع أن ينتقم له ويسترد لعائلته الشرف الذى أهدر دمه وأنه إذا لم يقم بالانتقام لها فانها ستضطر إلى قتل نفسها ، وقتل ولدها هرباً من العار الذى يلاحقهما ماداما على قيد الحياة، دون أن ينتقما «لرجلهما». . وهمست له فى آخر حديثها الباكى بأنها استطاعت أن تبيع قرطها وخاتمها الذهبيين بجنيهين تضيفهما إلى الخمسة جنيهات .. ومدت يدها بالمنديل الأسود . ولكن «أبو دراع» أزاح يدها ولوى عنقه فى انفعال وهو يقول لها بصوت متهدج :

– طيب روحى .. روحى ياوليه ..

وأشرق وجه المرأة . وأخذت تقبل يدى « أبو دراع » وهو يستطرد قائلا :

– بس أسمعى .. الطبنجه حا أخفيها عندك بعد العملية ..

وهتفت المرأة فى لهفة :

– طيب فى عنيه الأتنين يا «أبو دراع» ..

ولم تمضى ساعات بعد ذلك الحديث حتى عثر خفراء القرية الليليون على جثة رجل فى ماء الترعة، فأخطرت نقطة البوليس والنيابة. واستيقظت القرية لتهوى فى دوامة من الهمس يخترقها صدى زراغيد تنطلق فى بيت المرأة الأرملة ذات العينين الواسعتين .. فاتجهت إليها شكوك المحققين وقاموا بتفتيش بيتها فعثروا على مسدس به رصاصتان من نوع الرصاصات

التي استخرجت من جثة القتيل ..

وحينما ووجهت المرأة بالاتهام، قررت دون تردد أنها هي القاتلة . واستمرت تطلق الزراغيد في عصبية مجنونة وترثى زوجها بكلمات منغومة تمجد الثأر والدم ..

وألقى القبض عليها . ووصل النبأ إلى «أبو دراع» فسب وأرغى وأزبد وقال لنفسه : «تستاهل» . وحاول أن ينسى الموضوع كله ويلعب الورق ولكن صورة المرأة بعينيها الواسعتين تنزفان الدموع الساخنة وصرخاتها وتوسلاتها . .ومنديلها الأسود..لم تردأن تفارق شعوره وإحساساته أبداً . وخفق قلبه بشدة ولمعت قطرات العرق على جسده..وفجأة رمى ورق اللعب من يده . وانتفض واقفاً في سرعة وحزم ليحسم حالة قلق وتردد تسلبه إرادته..ومضى في صمت إلى نقطة البوليس وقدم نفسه إلى المحققين معترفاً بأنه هو وحده القاتل وعلل العثور على المسدس ببيت السيدة بأنه هو الذى قذف به إلى هناك ليضلل التحقيق ويوجه الإتهام نحوها ورفض بعد هذا الاعتراف القصير أن يزيد حرفاً . . وظل قلبه يخفق .

ويطيب دائما للسجين المقوس الظهر الأفطس الأنف ثقيل اللسان . أن يختم في كل مرة يروى فيها حكاية أبو دراع بقوله :
— وخرجت الست أ..أم العيون الواسعة .. وأنهبد أ .. أبو دراع خمسه وعشرين سنة مؤبد ياحلو ..

وكان بعض المساجين الجدد يسمعون حكاية «أبو دراع» وهم واقفين في عيادة السجن الطبية ينتظرون العرض على الطبيب ..

وترامى إلى سمعهم غلى حين غرة ضجيج صاخب منبعث من مبنى الإدارة القريب منهم .. وفهموا من أحد السجانة أن سببه يرجع الى أن الإدارة تتسلم لومانجى وتريد أن تعطيه نمرة نحاسية برقم «١١٣» لكنه يرفض. فهو يتشاءم من هذا الرقم.. كما أنه لا يريد رقم «١١٤» الذى يليه ويصر على أن تكون نمرته رقم «١١٥» بحجة آنه يتفاءل برقم «٥» لوجود شبه بينه وبين كعكة العيد ..

وضحكوا ساخرين ..

وصرخ السجين الثقيل اللسان بغتة :

ــ أ . . أهو ده .. أ . أبو دراع بعينه ..

وبرز من باب الإدارة الحديدى شيخ هزيل الجسد .. أثقلت الكهولة خطواته ..وسلبت نورعينيه .. وانطبعت على وجهه بسمة واسعة افترشت كل صفحته فطمست منه الملامح جميعاً ، واختلطت بتجاعيد البشرة فبدت عتيقة لها عمر صاحبها على الأقل .

صلاة الجمعة

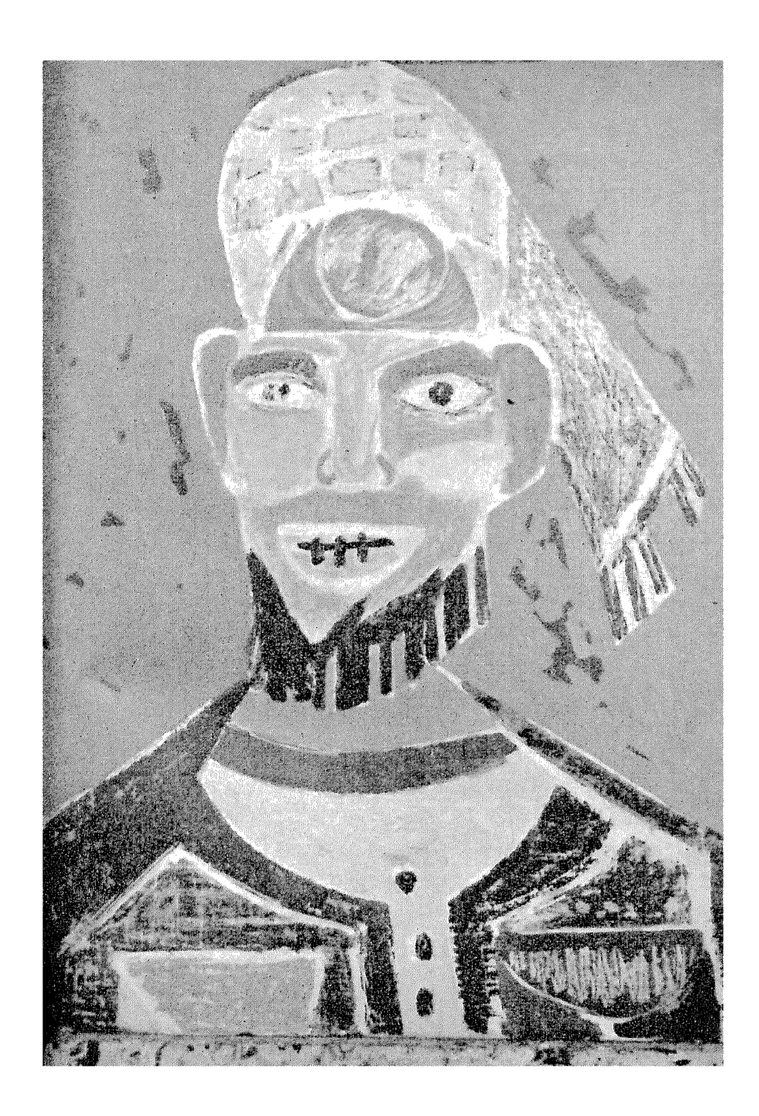
منع المأمور المساجين السياسيين من حضور صلاة الجمعة التى تقام أسبوعياً بالفناء الداخلى. كانوا قد أثاروا مع الشيخ «عليوه» الجهورى الصوت ذى العمامة الخضراء، مناقشات عنيفة أحمر لها وجهه المنتفخ. وأكتسحت المصلين وقتها موجه من الضحك، أمام «التأته» التى أنتابت لسانه.

وقال الشاويش عبد القادر وهو يبتسم فى سخرية:

– الله يجازيكم ياسياسيه .. طيرتم عقل فضيلة الشيخ ..

.. عادت صورة الحادث الذى وقع منذ أسبوع ترتسم متجسدة فى مخيلة الشاويش عبد القادر، وهو يتحفز للنداء على جميع المساجين فيما عدا السياسيين منهم، للصلاة ..

وتتابعت فور ندائه – الذى امتلأ بشحنات دسمة من السباب – حركات الأقدام تقرع درجات سلم العنبر الحديدى. وتندفع معها أجساد المساجين فى الخيش الأزرق الكالح اللون .. فى حين تعبث بعض الأيدى التى تدلت فى استسلام، بحبات مسابح من نوى الزيتون .. حتى إذا ما وصلت طلائع المساجين إلى ساحة العنبر، راح العساكر يهشون عليهم بعصيانهم الطويلة



كما لو كانوا رعاة قطيع من الأغنام، يوجهونه ويعيدون ما ينفر من أفراده هنا وهناك . وشرع المساجين بجلبة شديدة فى طرح الأبراش التى يحملونها إلى أرض الفناء ، قبل أن يجلسوا فى أوضاع متباينه .. وصوت الشاويش عبد القادر يزعق :

— ياولد أنت وهو .. وحد الله فى قلبك وأقعد ساكت ..

وهمد الضجيج لحظات . لكنه لم يلبث أن هب من جديد . ودلف الشيخ عليوه إلى الساحة فى مشية مترددة، وعينين زائغتين تجوس نظراتهما فى كل ركن حتى إذا ما استوثقتا من عدم وجود المساجين السياسيين ، انفرجت أسارير الوجه الذى كان جامداً وألقت الشفتين :

— السلام عليكم ..

وعلت أصوات الموجودين ترد التحية فى تنغيم ممطوط :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..

ولهثت أثر ذلك أصوات أخرى شاردة ، تحاول اللحاق :

— .. ورحمة الله وبركاته ..

— . .. وبركاته ..

وسادت فترة من الصمت، أطرق فيها الشيخ عليوه برأسه حتى كادت تسقط إلى حجره من بين كتفيه .. وهو جالس فوق منبر خشبى صغير . وانهمك أربعة أو خمسة مساجين فى صلاة إنفرادية بينما دار الهس وسط الآخرين .. وحركات الأيدى بينهم رائحة غادية فى سرعة.. تعطى السجائر لتأخذ عيدان الكبريت ولفائف من الورق، لا تبين عما بداخلها من أشياء .

وقبع بأحد الأركان سجين عجوز ، شملته رعدة تقلقل جسده فى حركات منسجمة مع ذبذبة شفتيه :

— يامنجى .. يامنجى .. يامنجى .. يامنجى .. يامنجى ..

وحين هم الشيخ عليوه بالوقوف، باغته صوت منطلق من داخل إحدى زنزانات المساجين السياسيين المغلقة ، المجاورة له :

– هل يبيح لك الدين ياشيخ عليوه أن تحرمنا من الصلاة ..
وجمد الشيخ فى شكل قوس . وفرض الضيق علاماته على وجهه . وفكر فى أن يرد على السؤال، لكنه رأى عندما أنتصبت قامته تماما أنه يحسن تجاهل السؤال، فخرج صوته من حلقه مبحوحاً متقطعاً :
– أعوذ بالله .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . قم ياحسين وأذن للصلاة ..
ونهض من وسط الموجودين، سجين قصير القامة لازمته النحنحة وهو يطوق فمه بكفيه قبل أن يخرج صوته رقيقاً طروباً . يطول ويقصر ويخف ويغلظ ..
– الله أكبر .. الله أكبر ..
ولكن الشيخ عليوه هتف به :
– ياولد تحشم .. بلاش شغل أم كلثوم وعبد الوهاب .
وانتظر هنيهة قبل أن يستطرد، وهو يضغط على مخارج الكلمات فى قوة :
– لا .. خلاعة .. فى .. الدين ..
وانتشرت همهمات مختلطه اخترقها تأدية حسين للآذان بطريقة جافة وسريعة . وعندما توقف، أنساب صوت الشيخ عليوه وقوراً :
– ياعباد الله .. و ..
وتبخرت الكلمات من فمه حينما تلاقت نظراته بنظرات وجوه بعض المساجين السياسيين التى تعلقت بنوافذ أبواب الزنزانات . ودارت رأسه فى حركة استطلاع لكل الأبواب .. ثم استعاد شعوره، وردد لسانه فى حركة آليه شابها بعض الاضطراب :
– يا .. يا عباد .. الله ..
ولم يكد يلفظ عبارته، حتى اندفع إلى الفناء ضابط السجن السمين وأخذ يشمر رجلى بنطلونه .. وعيناه تنقران بنظرات قاسية كل ماوجد أمامه من

جماد وإنسان .. ثم جلس القرفصاء فى مقدمة الصفوف، فتباعد من حوله السجانة والمساجين احتراماً وهيبة . وتنفس الشيخ عليوه فى ارتياح.. وكرر ندائه فى شيء من القوة :

ــ ياعباد الله .. و ..

وصدرت عن الضابط كحات خفيفة، نبهت الشيخ إلى واجب القيام بتحيته، فقطع حديثه وانحنى بجسده ناحيته، وهمس فى تودد :

ــ سلامات .. شرفتنا ياحضرة الضابط ..

واكتفى الضابط بأن وضع راحة يده اليمنى على صدره ، وطأطأ رأسه مرتين .. وعاد الشيخ عليوه ينادى :

ــ ياعباد الله .. وحدوا الله ..

وانفجرت أصوات مختلطة تستجيب للنداء :

ــ لا إله إلا هو .. لا إله إلا هو ..

حتى إذا ماخفتت . ورن آخر صدى لها بساحة العنبر ، سمع صوت السجين العجوز فجأة :

ــ يامنجى .. يامنجى .. يامنجى .. يامنجى .. يامنجى ..

وصرخ الشيخ عليوه مطالباً بعدم المقاطعة، ولكن السجين العجوز لم يمتثل وظل فى مناجاته الرتيبة.. وتبادل الشيخ مع الضابط نظرات وامضة لفظ على أثرها الضابط السمين فى غلظه :

ــ ياولد .

وأطبق السكون على المكان . وتركزت العيون جميعها على ظهر الضابط الذى بدا كجدار برميل، وعندما نطق الشيخ عليوه من جديد ــ « ياعباد الله » تحولت كلها إلى وجهه المنتفخ . فأخذ يفرك يديه أحدهما بالأخرى ويمد رقبته فى كل اتجاه وهو يعظ :

ــ ان الله يحب من يقرأ كلامه..وكلام أنبيائه أن يؤمن به دون منازعه . إياكم والوقوع فى حبائل الشيطان اللعين .. فتسمحون لأنفسكم كما حدث

للبعض (ولوح برقبته نحو زنزانات المساجين السياسيين) .. والعياذ بالله فتتساءلون .. وتفكرون .. وتناقشون .. وتظنون أن عقولكم الصغيرة الضعيفة التافهة تستطيع أن تناقش حديث السماء .. وحديث الأنبياء .. وحديث الرسل .. وحديث ..

وجاء من داخل زنزانات المساجين السياسيين المغلقة صوت كالصاروخ يقلد لهجة الشيخ :

– وحديث الشيخ عليوه ..

وتجاوب المكان ببعض الضحكات السريعة . وبهت الشيخ عليوه وتبادل مع الضابط نظرات فيها معنى الاستئذان فى الرد على سخرية السياسيين ولكن الضابط أسبل جفنيه عدة مرات علامة على رفض طلب الإذن . وراودت الشيخ عليوه فكرة ، انشرحت لها قسمات وجهه فعاد إلى فرك يديه ومد رقبته يميناً ويساراً . وراح ينفذها قائلا فى شىء من الهدوء المصطنع :

– بقى فى الجمعة اللى فاتت تفلسف أستاذ من الأساتذة .. وتكلم عن اللى بيسموه اليومين دول .. القنبلة الذرية ..

وجاء نفس الصوت المقلد من داخل الزنزانة يقول :

– الذرية ! الذرية بفتح الذال لا ضمها .. ياسيدنا الشيخ ..

ولم يعن الشيخ عليوه بهذه المقاطعة بل استمر فى حديثه :

– وقد رجعت ياعباد الله إلى كتاب الله فوجدتها فيه .. قال تعالى :

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » .. صدق الله العظيم .

وتوقف لحظة قبل أن يستأنف شارحاً فى غبطة من اكتشف سراً :

– وما هى هذه الحجارة الضئيلة التى يستطيع الطير الصغير حملها وإلقائها فى معركة الفيل فتهدم وتقتل كل شىء إن لم تكن قنابل ذرية أو .. ذرية ..

وهتف بعض المصلين فى إعجاب شديد :

ـ يسلم فمك ياشيخ عليوه ..

وأحس الشيخ عليوه بزهو غريب ، بدت آثاره فى بسمات شاعت على وجهه ، ونظرات هستيرية لمعت بها عينيه ، وسرعة ملحوظة فى حركات فرك اليدين ، وصمم على أن يكمل انتصاره بقوله :

ـ وهكذا ياعباد الله .. كل شىء عن عجائب الدنيا وغرائبها .. فى الماضى والحاضر والمستقبل .. مسطر ومدون بكتاب الله .. يكشف عنه المؤمنون الصالحون ..

وقاطعه أحد المسجونين فى لهجة استفهامية ضعيفة الجرس :

ـ حتى .. حتى البندقية الميزر ..

ـ حتى البندقية الميزر .. قال تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » ..

ـ نعم .. إيه ..

ـ « ويخلق ما لا تعلمون » .

وتلفت السجين فى اضطراب إلى زملائه وهمس برهبة :

ـ عدم المؤاخذه .. مش فاهم ..

واندفع الشيخ عليوه قائلا فى حدة :

ـ مش فاهم .. آه يا كافر .. ياغبى .. يا محروم من نعمة الله ..

وارتفعت أصوات تطلب من السجين :

ـ اقعد .. اقعد ..

واستكان السجين وقعد .. ولا زالت الحيرة تفقده كل إحساس بواقعه ..

وفجأة ارتفع صوت السجين العجوز :

ـ يا منجى .. يا منجى .. يا منجى .. يا منجى .. يا منجى ..

وصرخ الضابط السمين :

ـ يا ولد ..

واندفع الشيخ عليوه يزوم فى لهجة مسرحية ، وذراعاه معلقـان فى الفضاء :

— نعم يا منجي .. نجنا من الكفر والكافرين ..

وجاوبته بعض الأصوات فى خشوع : آمين .. آمين ..

وفى نفس اللحظة بدأ فمه يتلفظ بكلمات مكتومة تتداخل نهايات بعضها ببدايات البعض الآخر :

— الله لا إله إلا هو الحى القيوم خالق الأرض والسماء وباعث الأحياء من الأموات والنور من الظلمات ..

وعند ما وصل إلى عبارة « أما بعد » نطقها فى تأن وضغط شديدين على حروفها واستطرد :

— ... فان خطبة الجمعة اليوم هى الآيات الكريمة التى تقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها. ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم . وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا . هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم » .. يعنى ...

وقاطعه صوت أجش صادر من سجين ضخم الجثة ، رأسه أقرب ما تكون إلى رأس حصان شوه الجانب الأيمن منه آثار جرح قديم :

— يعنى بلا قافية يامعلمين .. تدخلوا البيت من بابه مش من شباكه ..

وتصلب الشيخ عليوه فى وقفته ، وقد انفرجت شفتاه عن أسنان بيضاء يتوسطهما سن مذهب . وطافت الابتسامات بوجه المساجين حتى إذا ما أخذت تتطور إلى ضحكات ذات رنين صاح الضابط منفعلا :

— يا ولد ..

فاذا الهدوء يعود إلى الفناء .. ويستأنف الشيخ عليوه إلقاء عظته والمصلين عنه شاردين منهمكين فى أحاديث جانبيه ، أخذت تعلو شيئاً فشيئاً حتى إذا ما ضاق بها صدر الشيخ عليوه ، دفع ذراعه مشيراً إلى اثنين من المساجين

انفعلا فى حديث غاضب . وتساءل بعنف :

ـ مالك انت وهو.. يا كافر .. يازنديق..

وبهت المسجونان لهذه المفاجأة. وسكنت جميع الأصوات. والتفتت ناحيتهما الرؤوس..وتردد أحدهما فى الكلام لحظات..ولكن الآخر تشجع فوقف وقال :

ـ أصل بالصراحة كنا بنتخانق على حكاية يا سيدنا الشيخ .. مات لى ولد صغير من سنتين فأنا قلت له (وأشار إلى زميله) لما تقوم القيامة حايكون صغير برضه .. فهو قال لى لأ .. حا تلاقيه كبير وعجوز .. وأنا قلت حا يكبر ازاى والا يعجز ليه .. يا ترى مين الصح فينا يا سيدنا الشيخ ..

وتحولت الرءوس كلها إلى الشيخ عليوه الذى كان يقول فى نفسه « ياله من إشكال سخيف لا رأس له ولا رجلين » . وفكر فى أن لا يرد بشيء ولكنه خشى أن يفسر ذلك بعجزه فى العلم والدين . كما خشى أن يقطع برأى ويكون الرأى الصحيح هو الآخر ، فيثير عليه ثائرة المساجين السياسين الذين لا يرحمون. وصمم فى النهاية على أن يلقى بجواب عائم غير محدد . فتوكل على الله وقال بلسان تعمد أن يكون فصيحاً حتى يضمن عدم فهم المساجين له ، فلا يثيرون أسئلة جديدة :

ـ هناك قولان .. قول بأن الطفل الذى يموت يبعث بعد القيامة كما كان فى حياته طفلا وليداً .. وقول آخر يؤكد أنه يبعث وقد أضيف إلى عمره عدد السنوات التى تلى موته حتى يوم الحشر .. والله أعلم .

وتوقف . ثم سأل وقلبه يرجف :

ـ فاهمين ؟

ولم يكن أحد من المساجين فاهم لحرف مما قاله الشيخ . لكنه انتهز فرصة تأرجح بعض الرؤوس اعتباطاً فاعتبر ذلك دليل الفهم وسارع إلى القول :

ـ إذن .. هيا إلى الصلاة ..

ووقف الجميع .. وحسين يدعو فى نغمات خافته :

ـ حى على الصلاة .. حى على الصلاة ..

وانتظم المصلون خلف الشيخ عليوه فى صفوف أفقية متعرجة ، كان جزء منها يستقيم بعض الشيء حينما تصدر من خلالها أصوات تقول :

ـ استقيموا .. استقيموا يرحمكم الله ..

وأخذت أجساد المصلين تتبع حركات الشيخ عليوة فى الصلاة حتى إذا ما انتهوا ، هب الضابط وانفلت من الفناء مسرعا دون أن يحيى أحداً . وارتفع صوت الشاويش عبد القادر يطلب من المساجين القيام ، وهو يبتعد ومعاونيه من العساكر ، عن الشيخ عليوه إلى نهاية الصفوف ، يباشرون عملية صعود المساجين إلى الزنزانات .

وتجمع بعض المساجين حول الشيخ عليوه .. وراحو يمدون إليه أكفهم فى خفيه فيمسكون يده اليمنى ويقبلونها وهم يغمزون بأعينهم قائلين فى استجداء :

ـ بركاتك ياشيخ عليوة ..

والشيخ يتمتم بكلمات غير مفهومة . ويداه تقوم بحركات آليه ، تتردد بين أكف المساجين وطيات جلبابه الفضفاض كأنما هى تأخذ شيئا لتعطى شيئا . وأحياناً كان يتوقف عن الحركة ، ويزغر إلى من يقبل يده فيسرع الأخير إلى القول :

ـ والله العظيم أديتك ..

وتعود الحركة تستأنف نشاطها ويأتى العساكر يقرعون بعصيانهم ظهور ما بقى من المساجين ، حول الشيخ عليوه فيفرون عنه وهو يهمهم فى صوت مسموع :

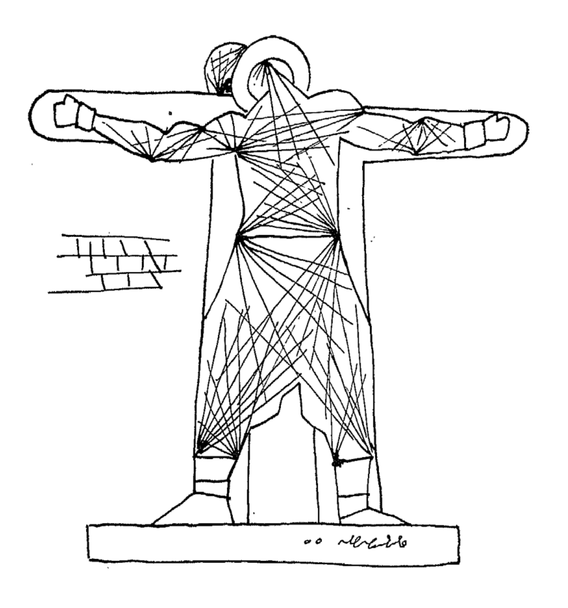
ـ الحمد لله .. الحمد لله ..

ويخرج من جلبابه بعض لفافات صغيرة يضعها فى أيدى العساكر وهو يقول ضاحكاً :

- جربوا النشوق ده يا أولادى ..

ويبذر العساكر بعض مسحوق النشوق فى أنوفهم .. وسرعان ماتتكرمش منهم الوجوه .. وتتقلص العضلات .. وتتراقص الحواجب .. وتفيض العيون بالدموع .. ثم يندفعون فى عطس متواصل ، والشيخ عليوة يغادرهم ، مهرولا مسروراً .

وفى المساء كانت زنزانات المساجين تتبارى فى « عطس الأنوف » كل ساعات الليل .. وأصوات منتشية تحيي بين آن وآخر بركات الشيخ عليوه .



ست سجاير

— « الحاج سلامه مات منذ سبعة أشهر . بل ربما سنه تقريباً .. مات خارج السجن . بعد الأفراج عنه..ونحن هنا لا ننساه أبداً . نترحم عليه كل يوم وندعو له بالجنة .. السيجاره التى تعفرها الآن أمام الشاويش مطمئناً كانت جريمة .. تعاقب عليها بالجلد منذ أكثر من سنة . لـكنها اليوم أمر مباح .. كل ذلك بفضل الحاج سلامه . . رحمه الله وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. »

وسكت «رضوان أفندى» عن الحديث . وتناول من أصابعى سيجارتى وراح يشعل بها سيجارة من السجائر الستة التى حصل عليها من « كانتين » السجن . وفوجئت بالحديث وعجبت للنبرة المفعمة بالحزن التى شابت كلمات « رضوان افندى » .. وكنا جالسين بالفناء نقضى فترة طابور الصباح ..

ولم أكن أعرف يومئذ عن «رضوان افندى» غير معلومات ضئيلة .. كان مدرساً للغة العربية بأحدى مدارس بنى سويف الإلزاميـة نهاراً ، وتاجراً من تجار الحشيش ليلا . وذات مساء ضبطوهو يعقد صفقه كبيرة وحكم عليه بالسجن أربع سنوات .

ولست أريد — اليوم — أن أروى قصة « رضوان أفندى» وقدعرفتها كاملة — فيما بعد . وإنما أحب أن أنقل عنه ذلك الحديث الذى أستطرد فيه بعد ما سألته دهشاً :

— ومن هو الحاج سلامه .. يا رضوان أفندى ؟

وكان الرجل ينفث دخان سيجارته ، والمتعة تصهر كل حواسه . وعيناه تصافحان فى شرود صفحة السماء الزرقاء . ونفذ إلى سمعى صوته الدافىء الغليظ :

— كان وجهه دائماً كصنية البطاطس فى لحظة خروجها من قاع الفرن .. أحمراً بسمرة خفيفة .. أنفاسه الحارة اللاهثه لا تنقطع أبداً .. وكان معظم السجانة يكرهونه كما يكرهرن حمواتهم . ويؤكدون مقسمين بالشرف والرب وأولياء الله الصالحين أنه ليس حاجاً . لأن قدميه النجستين لم تطأ قط الأرض المقدسة . ولأن عينيه الشريرتين لم تقعا على الكعبة الشريفة ، أو قبر الرسول الطاهر . ولأنه — وهذه حقيقة ياسيدى — فقرى طول عمره لا يملك الغنى الذى يتيح له الانتقال من بنى سويف البلد إلى بنى سويف المحطة بغير قدميه المشقوقتين..ومع ذلك فلم نكن— نحن المساجين— نصدقهم..وكنا نصر على مناداته ياحاج سلامه وكنا نحبه كما نحب الشمس والراحة والمعسل والإفراج . وكان الحاج سلامه كريماً جداً .. يحبنا جميعاً كأولاده . كان رجلا ولا كل الرجال . رحمه الله ألف رحمة ورحمة .. أحكى لك حكاية .. فى مرة كانت روحى قد أوشكت على أن تغادر محبسها من جسدى . فلقد أحسست بها تتلوى بين أوتار حنجرتى.. جميل هذا التعبير .. أليس كذلك ؟ وكنت ياسيدى قد أمضيت بالسجن ثلاثة أشهر لم أتعاط خلالها نفساً ، ولا أستحلب لسانى قطعة من أى صنف .. وأنا رجل قبـل أن أكون تاجراً للحشيش بكافة أنواعه وماركاته .. صاحب مزاج كبير .. وضاقت بى الدنيـا .. وبينى وبينك فكرت فى الانتحار فعلا .. ولـكنهم .. يعنى إخوانى فى الزنزانة قالوا لى : أقصد «الحاج سلامه» .. فرحت له وأفضيت إليه .. أو قل ألقيت إليه بسرى فطمأن خاطرى وقال لى : « ما تحمل هم يارضوان أفندى انشا الله مزاجك ينعدل الليلة » .. وعنها والرجل نفذ وعده وانفكت ضيقتى فى تلك الليلة بحتة « ربع

قرش » كان عندى بالدنيا كلها .. أتعرف ما الثمن الذى دفعه الرجل فى ذلك الربع؟ .. عشاؤه فى تلك الليلة .. نعم وربى . بات الحاج سلامه من غير عشاء لأجل خاطرى ومزاجى .. يرحمك الله ياحاج سلامه .. الفاتحة لروحه ..

وأنشأ « رضوان افندى » يرتل آيات فاتحة القرآن فى همس . وقد ألقى برأسه إلى الخلف وبسط راحتى يديه فى ابتهال إلى السماء ، حتى إذا ما انتهى من ترتيله مسح بهما وجهه مرات عديدة وتنهد فى أسى . وانساب صوته بطيئاً :

— أقول لك إيه .. وأعيد لك إيه .. كان رجلا وكانت أياماً .. كان الواحد منا يتشوق للسيجارة بشكل أعجز أنا .. وأنا على فكره من أحسن مدرسى اللغة العربية فى مدارس القطر كافة بشهادة النظار والمفتشين ومفتشى المفتشين .. تعرف أن الدكاترة زكى مبارك وأنا ... لكن هذا ليس وقته .. هذا ليس وقته .. إحنا وصلنا لحد فين ..

وأجبت بصوت خفيض :

— كان الواحد يتشوق للسيجارة بشكل ...

ولم يجعلنى أتمم عبارتى وإنما استطرد يقول فى عصبية :

— نعم ياسيدى بشكل عنيف .. بشكل جنونى تماماً كما كان قيس .. طبعاً سمعت عليه . مجنون ليلى .. يتشوق إلى محبوبته . و « اللائحة » تحرم على المسجون التدخين من باب التأديب والتهذيب والعقاب .. اللائحه كأبى ليلى العامرية بالضبط فى قسوته .. تحول بين المسجون والتمتع بسيجاره . ولكن المسجون كمجنون ليلى لم يكن يعدم طريقاً خافية مستترة .. وعلى فكرة الطريق فى اللغة مؤنث وليست بمذكر كما يخطىء الناس فى القول .. آه .. طريقاً خافية مستترة ينعم فيها لحظات بسيجارة بعيداً عن أعين اللائحة .. وكان ذاك بالطبع يكلف غالياً .. غالياً جداً .. تصور أن السيجارة الهوليود كان السجانة يبعنها لنا بزرار كامل .. نعم وربى بقرشين صاغ .. يعنى ياسيدى قدر ثمنها الحقيقى عشر مرات ..

وتوقف « رضوان افندى » ريثما يشعل سيجارة جديدة من العقب الضئيل الذى تبقى من السيجارة السابقة وأودعه بعد أن أطفأه راحة يده اليسرى . واستأنف حديثه منفعلا :

ــ وياليت الأمر وقف عند هذا الحد . وإنما كانت هناك عصابة ياسيدى .. عصابة من السجانة منظمة مدربة .. تصنع الأعاجيب وتثرى على حسابنا وحساب أمزجتنا .. إسمع ياسيدى .. العصابة تشترى علبة السجاير الهوليود من خارج السجن بالثمن العادى .. عشرون سيجارة بأربعة قروش .. وطبعاً تدخلها السجن بكل سهولة لأن الذى يفتش المشترى عند الدخول تنفيذاً للائحة أحد أفراد العصابة .. وتسلم العلبة بعد ذلك لسجان العنبر وهو أحد أفراد العصابة أيضاً ليقوم ببيعها « للخرمانين » من المساجين .. السيجارة بزرار .. وما هى إلا لحظات بعد إتمام البيع حتى يقوم وكيل الباشسجان باجراء تفتيش مفاجىء لعنبر المساجين الذى بيعت فيه السجاير فيضبط معظمها .. خمسة عشر سيجارة .. سبعة عشر سيجارة .. حسب الظروف .. فتصادر ويحرر ببعضها محاضر ضد من ضبطت معهم ويوقع عليهم من أجل ذلك عقاب الجلد أو التأديب فى زنزانات السجن الانفرادى ، دون طعام سوى الخبز الجاف كالصخر .. لمدد تتراوح بين يوم وخمسة أيام .. وأما غالبية السجاير المضبوطة فتعطى من جديد لسجان العنبر لإعادة بيعها .. حتى إذا تمت عملية البيع تكررت نفس المأساة .. وهكذا دواليك ياسيدى لدرجة أن علبة الهوليود التى دفعت فيها العصابة أربعة قروش فقط تدر عليها ربحاً يصل فى النهاية إلى مائة قرش .. ومائة وخمسين .. وأحياناً مائتين من القروش عداً ونقداً . . وكان المساجين يعرفون كل هذا .. ولكنهم تحت ضغط الحاجة يقومون بمخاطرة شراء السجاير كل يوم ... آه من الحاجة ياسيدى ؟. وظل الوضع على هذا الحال حتى أعلن الحاج سلامه .. رحمه الله .. العصيان فى وجه العصابة ..

وسكت « رضوان افندى » قليلا وأخذ يهرش بأصابعه فى شعر رأسه

متفكراً ثم قال فى لهجة عالم مدقق :

ـ ترى أيهما أصح لغة .. العصابة أم العصبة .. هيه .. أظن الاثنين سواء .. ماعلينا ياسيدى.. فالحاج سلامة فى إحدى المرات اشترى سيجارة من سجان العنبر ثم فاجأه التفتيش المعهود .. وقام وكيل الباشسجان بتحرير محضر بضبط السيجارة فسأله عن إسمه ورقمه ورقم زنزانته . وعندما وجه إليه السؤال عن مصدر السيجارة المضبوطة أجاب فى هدوء بأن الشاويش «بديوى» سجان العنبر قد باعها له بزرار واحد .. وذعر وكيل الباشسجان لهذه الإجابة التى لم يكن يتوقعها رغم علمه بأنها الحقيقة ، فتوقف عن تسجيل المحضر ..وراح يبحلق طويلاً فى وجه الحاج ثم صرخ فيه : « بتقول إيه » .. وأعاد عليه الحاج سلامه إجابته فى صوت أكثر هدوءا إلا أنه معجون بالاصرار .. وصرخ وكيل الباشسجان مرة أخرى : « أنت مجنون .. عايز الكلام ده ينكتب فى المحضر» . ولم يزد الحاج سلامة على القول « أيوه يا افندى» .. وأمام هذا الإصرار هرع وكيل الباشسجان يطلب النجدة من رئيسه الباشسجان وبعض السجانة الذين تجمعوا حول الحاج سلامة يحاولون فى إلحاح واستعطاف إثناؤه عن اتهام الشاويش « بديوى » .. ولكنه كان صلباً .. صلبا .. كالحديد .. فلم يلن أبداً حتى عندما شرعوا يلوحون له بالعذاب الذى سيكون جسده النحيل موضوعاً له . ولم يكن هناك من حل لهذه المشكلة التى خلقها الحاج سلامه إلا أحد أمرين . إما أن يعدل عن تحرير المحضر ضده وتمزق الأوراق ..وكان ذلك مستحيلا لأن أوراق المحاضر تحمل أرقاماً مسلسلة .. وإما الرضوخ لصلابة الحاج سلامه وتدوين أقواله ضد الشاويش «بديوى» فى المحضر.. وهو ماحدث فى النهاية .. وقامت الدنيا ـ دنيا السجن ـ وقعدت أكثر من عشر مرات وبعثت مصلحة السجون بمفتشيها إلى السجن للتحقيق مع السجن كله .. المساجين.. والسجانة من المأمور للشاويش بديوى ..ومضت الأيام ـ كما يقولون دائماً فى القصص ـ وجاء أحد مفتشى مصلحة السجون من القاهرة

يوماً ليحقق للمرة العشرين في اتهام الشاويش بديوى ببيع السجاير للمسجونين.. وليحضر في نفس الوقت تنفيذ قرار التأديب الذى صدر ضد الحاج سلامة بجلده عشر جلدات بسبب ضبط منشار حديدى صغير في زنزانته .. وأقسم الحاج سلامه بشرفه أنه لا يعرف عنه شيئا . ولكن ثلاثة من الشاويشية شهدوا بأنهم رأوه يخبئه تحت برش الزنزانة .. وصدقتهم إدارة السجن طبعاً .. وكنا ن المساجين على يقين تام بأنه برىء ولكن لا حيلة في يد العاجزين كما يقول المثل العربى القديم .. واقتيد الحاج سلامة إلى ساحة العنبر حيث كانت العروسة بانتظاره في احتفال مهيب ..

وتحرك لسانى على غير إرادة منى يردد مقاطعاً :

— العروسة ..

وسدد رضوان افندى إلى وجهى نظرة دهشة من خلال عينيه الضيقتين . وارتسم على سحنته تعبير يكاد ينطق : « من هذا الجاهل الذى أضيع وقتى معه » ولكن سرعان ما انفرجت شفتاه عن بسمة باهتة وقال بجانب من فمه وكأنه وصل إلى فهم علة جهلى :

—آه .. أنت ضيف جديد .. كاركى .. العروسة ياسيدى هى تلك الفتاة الخشبية الرائعة الحسن.. المياسة القد.. التى تلقاك فى حوش العنبر قد فرغ رأسها وامتد ذراعاها .. ووقفت على ساقين متباعدين..مستعدة دائماً لاحتضان أى رجل دون أدنى خجل أو تحرج .. صدقنى .. النساء كلهن لا خجل لديهن ولا حياء.. سواء كن من لحم ودم..أو خشب ومسامير .. ده أنا كنت متزوج من واحدة .. لكن هذا ليس موضوعنا .. ما علينا يا سيدى .. لقد اقتادوا الحاج سلامه إلى العروسة فحشروا رأسه فى فراغها وربطوه إليها .. الذراع على الذراع والساق على الساق.. وعروا ظهره.. ووقفوا حوله .. الجلاد بجثته الضخمة يفرقع بحركة من يده السوط ذى السبع خيوط المعقودة الأطراف..والمأمور .. وضابط العنبر .. وطبيب السجن .. ومندوب مصلحة السجون..والباشسجان وجمع من السجانة ..

ونحن داخل الزنزانة يهمس بعضنا لبعض فى وجل ورهبة، ونتلصص بأعيننا خلال نوافذ الأبواب الحديدية .. أشار المأمور بطرف عصاته الصغيرة إلى ضباط العنبر.. فبدأ الاحتفال.. تلى الضابط بلهجة سريعة القرار الصادر بالجلد.. ثم تقدم بسؤال للحاج سلامه عما إذا كان لديه اعتراض على القرار. ولم يجبه الحاج . ولم يكن فى استطاعته لو أراد أن يقول شيئاً . وبنظرة آمرة من عينيه تحرك الجلاد وهوى بالسوط فى حركة خاطفة متماوجة من ذراعه فانتثرت الخيوط المعقودة ترن.. أى والله ترن.. ترن على ظهر الحاج سلامه كما لو كانت حبات عقد انفرطت على رخام ، وخلفت وراءها أنهراً من دم . وكتم الحاج سلامة آهة ألم . ولكنا جميعاً أحسسنا بها تخرق آذاننا.. وهتف الباشسجان بصوت حازم : «واحد» .. ولحقته ضربة السوط الثانية فتلعثم وهو يقول : «اتنين» .. وتوالت الضربات تشق السكون الذى أطبق على السجن.. وتشق ظهر الحاج سلامة .. وبين كل ضربة وأخرى كان الطبيب يشير إلى الباشتمرجى بوضع سائل زيتى على مكان الضرب وهو منهمك فى الثرثرة مع المأمور ومندوب مصلحة السجون حول الدواء الألمانى الجديد لعلاج «عرق النساء» ، الذى يعانى منه المأمور فى ساقه اليسرى ووالدة المندوب فى ساقيها الاثنتين .. وتوقفت الضربات . وصاح الباشسجان : خلاص يا افندم . وتنفسنا نحن الصعداء . ولكن الأنفاس تعثرت فى صدورنا عند ما قال ضابط العنبر فى لهجة آمرة للجلاد : بمناسبة تشريف البيه المأمور والبيه المندوب للعنبر تلات جلدات كمان ..!

وارتفعت يد الجلاد وهوت بضربة عنيفة ..وانطلق صوت من إحدى الزنزانات محتجاً بكلمات صاخبة غير مفهومة ارتفعت بعده أصواتنا مزمجرة .. وعلا صوت المأمور يهدىء من الضجة بقوله : خلاص . خلاص . كفاية . كفاية .. وتوقف الجلاد عن الضرب..وتحرك موكب الاحتفال إلى خارج العنبر وأخذ السجانة يفصلون جسد الحاج المتهالك كالجثة الهامدة عن العروسة .. وتلاشت الضجة شيئاً فشيئاً .. أو قل رويداً رويداً .. وأذكر

وقتها أن جمعه .. طبعاً تعرفه .. مطرب عنبرنا يا أخى .. راح يغنى بصوته الرخيم أغنية : سالمه يا سلامه . آه يا سالمه يا سلامه ....

ونحن نرد عليه فى حماس : رحنا وجينا بالسلامه ....

ومنذ ذلك اليوم صمم الحاج سلامه على أن يجعل مصلحة السجون تبيح التدخين داخل الأسوار .. وحاولنا إثناءه مرات ومرات فقد كان الأمر يبدو مستحيلا .. مستحيلا .. جداً . ولكنه لم يتراجع أبداً .. وبالطبع توالى عقاب إدارة السجن له حتى كان يوم عين فيه لمصلحة السجون مدير جديد . وأعلن أنه سيقوم بزيارة سجننا .. وفى يوم الزيارة فوجىء الجميع بالحاج سلامه يخترق صفوف المساجين المتراصة كالأغنام أمام المدير ويعرى ظهره وقد ارتسمت عليه أخاديد طويلة زرقاء . وكانت هذه حركة مسرحية بديعة .. أثارت المدير وجعلته ينصت للحاج سلامه وهو يروى له القصة كاملة .. تجارة السجانة السوداء فى السجائر .. العقاب .. الجلد .. التأديب .. وطالب فى النهاية بالتصريح للمساجين بالتدخين فى أوقات الراحة . وبالرغم من أن المدير امتعض بعض الشىء لهذا الطلب إلا أنه وقع فى حرج نتيجة المفاجأة فوعد بدراسته وأخذ يلقى علينا موعظة طويلة شحنت بالطاعة . والتزام النظام والنظافة .. النظافة من غير صابون هيه .. والتفكير فى الله .. والتكفير عن الذنوب ..

لا أطيل عليك .. انتهت زيارة المدير من هنا وارتبط الحاج سلامه على طول بالعروسة دون أى احتفال رسمى .. ومضت الشهور ونحن ننتظر نتيجة دراسة المدير لطلب الحاج .. وفى خلال ذلك كانت الإشاعات حول اجابة الطلب من عدمه تضخمت بدرجة أن إحداها قررت أن المصلحة ستبيح « تدخين السجائر والحشيش معاً .. » .. أى والله ..

وأصبحت فكرة السماح بالتدخين فى السجن هى الشغل الشاغل للحاج سلامه حينما يتحدث إلينا أو إلى نفسه .. وكثيراً ما كان يتحدث إلى نفسه .. وفى كل يوم كان يعرض على .. على أنا ــ وكنت قد صرت

من أقرب الأصدقاء إليه — وسيلة جديدة لتحقيق الفكرة ..

وجاء فى يوم وقال لى ، اسمع ياعم رضوان افندى .. كان ينادينى دائماً « يا عم رضوان افندى .. » احتراماً .. آه .. كنا فين ..

— قال لك اسمع يا رضوان افندى .. قصدى ياعم ..

— آه .. قال لى اسمع يا عم رضوان افندى.. خد القلم والورقة دول خبيهم واكتب لنا عريضة من كلامك الحلو اللى يسطل الدماغ .. علشان الجرايد . فقلت له : ناولنى يا أخويا ناولنى . . ورحت كاتب ياسيدى حته دين عريضة بأسلوب .. لكن ..ايه .. أقسم لك بالله .. لا طه حسين ولا ..المنفلوطى ولا توفيق الحكيم .. وقرأتها عليه وعلى « شلتنا » فكانوا يتمايلون من وقع الكلمات الجميلة المؤثرة كما تتمايل الأغصان مع هفهفة النسيم العليل .. وعنها يا سيدى والحاج سلامه أخذ العريضة وهربها خارج السجن عن طريق خفى .. وعلمنا أنها نشرت بالجرايد . . من غير توقيع طبعاً .. وأحدثت دوشه تمـام .. وتوالت العرائض كلها محرره بقلمى .. هى القذائف يا سيدى تسلب مصلحة السجون الراحة والطمأنينة.. وعلق عليها كثيرون من الكتاب .. كامل الشناوى .. واحسان عبد القدوس .. وزكى عبد القادر . ومرت شهور وشهور .. وفى يوم جمعنا المأمور فى الحوش .. الحوش .. ده.. وفاجأنا بالإعلان عن أمر سعادة مدير السجون الجديد بفتح كانتين بالسجن . يبيع لنا السجاير والحلاوة الطحينية والطماطم .. والأمر يمنع المسجون من شراء أكثر من ست سجاير يومياً .. وعليه أن يدخنها جميعاً فى وقت محدد .. ساعة الطابور .. الواحدة بعد الأخرى . ويسلم شاويش الكانتين أعقابها لأن إدارة السجن ملزمه بعد ذلك بأن تضع هذه الأعقاب فى حرز وترسله يومياً للمصلحة .. وكانت مفاجأة سارة بالطبع نسينا فيها أنفسنا وأعمارنا ورحنا نقفز كالأطفال راقصين نقبل بعضنا بعضاً . وما أن أفقنا لأنفسنا حتى أصابنا بعض الكدر بسبب الشروط التى وضعتها مصلحة السجون ..

فتدخين السيجارة كما تعرف طبعاً .. كيف ومزاج .. ليست له أوقات محدده .. وإلا إيه .. غير أن الحاج سلامه رحمه الله سرعان ما وجد حلا لهذا الإشكال .. كان ذكياً رحمه الله .. المهم ايه .. مش ان إدارة السجن تلم أعقاب الست سجاير حتى لا ينقص الحرز عقباً .. جميل .. إذا ضحى كل مسجون بسيجارة من الست سجاير وقسمها إلى ست قطع شد من كل واحدة نفساً تجمع لديه ستة أعقاب واحتفظ بخمس سجاير كاملة يدخنها وقتما يشاء له كيفه ومزاجه .. أليست فكرة جميلة ..

وتوقف رضوان افندى عن الحديث فزعاً ، تحت تأثيرة هزة عنيفه من شاويش الكانتين الذى راح يقول فى غلظة :

— ايه هى بقى الفكرة الجميلة دى .. فين الإعقاب ..

ونظر إليه رضوان افندى فى قنوط وبسط راحة يده اليسرى بخمسة أعقاب . وعندئذ صاح الشاويش :

— والسادس ..

— لاحول الله .. ألا ترى بعينى رأسك أنى أدخنه . أنتظر حتى أنتهى ..

— ياسلام عليك يا أخى لما تتكلم بالنحوى .. أنت فاكر نفسك فى المدرسة لسه..هأ هها أو .. أو..

ولم يشأ رضوان أفندى أن يسترسل فى محادثة الشاويش .

وأخذ يدخن سيجارته بسرعة ، وينظر فى شرود إلى حلقات الدخان التى يبعثها من أنفه تارة وفمه تارة أخرى وهو يقول فى أسى :

— أقول لك إيه .. وأعيدلك إيه.. كان رجلا .. الله ينزلك جنة الخلد يا حاج سلامة ..

رجال وحديد

— ١ —

إرتفع صوت «فوزى» داخل الزنزانة الثانية والستين بالدور الخامس بكلمات متلاحقة . وتهامس المساجين الذين كانوا يمضون فترة طابور الصباح بالفنـاء مشيرين إلى باب الزنزانة الحديدى الأسود . وقال أحدهم ضاحكاً :

— فوزى بيترافع .

وعلق الآخر :

— دى تانى جلسة بعد « الحكاية » ..

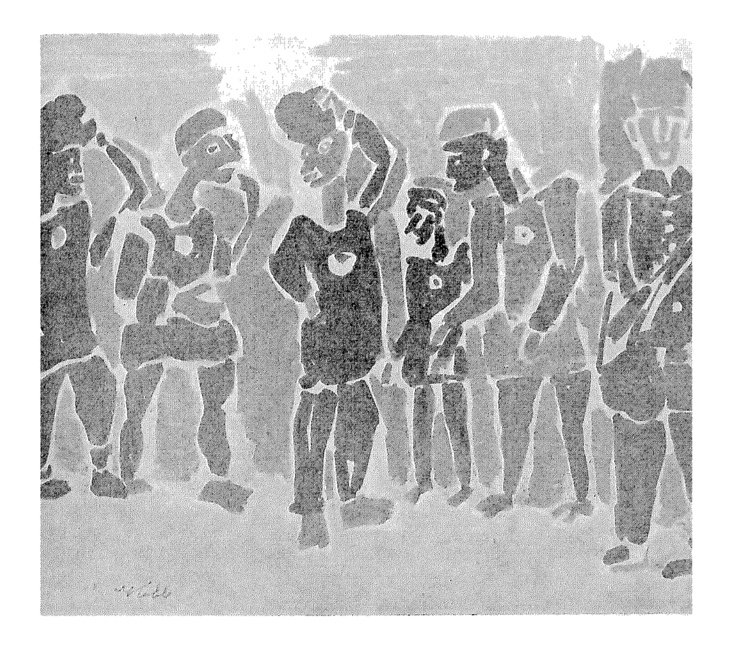
وتدخل ثالث ذو عينين بارزتين فى الحديث :

— تعرفوا أن مقدرناش نرد الضربة .. الحكاية حاتزيد . أنا شخصياً محضر نقد شديد للجنة العامة ..

وأنفعل أحد المساجين فى لهجة صادرة عن أنفه أكثر مما تصدر عن فمه :

— وده تصرف سليم يازميل .. تحضر نقد قبل ما تعرف اللجنة انتهت إلى إيه ..

— أصل المسألة أن الأدارة تمنع النهـاردة الصحف والورق والأقلام وبكره يجى الدورعلىالكتب والأدوية .. وبعده على السجاير والطابور .. وبعد بعده نبقى فى جزيرة روبنسكروزو بالضبط .. واللجنة العامة نعسانة على الآخر ..



— طيب والحل أيه دلوقت .. تنقد على طول .. وإلا تقترح علاج للموقف ..

وأحس ذو العينين البارزتين أن التوفيق قد خانه فى التعبير عن آرائه فحاول أن يبرر ذلك بقوله :

— أصل بالصراحة « الحكاية » زادت قوى ومفيش عمل مضاد ..

وتريث صاحب اللهجة الأنفية لحظات ، قبل أن يضع يده على كتف زميله ويقول فى هدوء :

— يازميل .. القاعدة أن العمل علشان يكون سليم لا بد يكون مسلح بنظرية ..وله تاكتيك ..

وسكت مرة أخرى ثم تساءل :

— عندك نظرية . عندك تاكتيك .. ناقشه مع الزملا ..

وأشار بابهام يده اليمنى حواليه . ثم وجهه نحو باب الزنزانة الثانية والستين .. وكان صوت فوزى مازال يئز فى جوفها ، حيث وقف ملقيا بقامته القصيرة ذات الرأس الضخم ، إلى الجدار . وأمامه زملاؤه السبعة .. ثلاثة منهم جلسوا على حافة السرير الحديدى الصغير . واتخذ اثنان من قاعدة دلو مقعداً يتقاسمانه ، وظهر كل منهما يستند إلى الآخر . وانفرد الأخير « بالبرش » ومد عليه ساقيه الطويلتين .

وكانت هيئة فوزى وهو يتحدث فى حده وعنف وحركات ذراعيه وأصابع يديه تغلفان كل كلمة تخرج عن فمه بنوع من الثورية فى المعنى ..

وأشار إليه أحد الجالسين على السرير أن يهدىء من صخب الحديث :

— بالراحة .. بالراحة علشان الزملا يقدروا يتتبعوك .

وتوقف فوزى . وأخرج منديله من جيبه وتجشأ فيه بسرعة ، وقال فى صوت بدء هادئاً رزيناً :

— طيب .. أنا عاوز أوضح كويس . أن أقتراح الأضراب عن الطعام حتى يسمح من جديد بالصحف والورق والأقلام غير سليم وغير عملى

وغير منتج ..

وجاءه سؤال متمدد من المفترش « للبرش » :

– ليه ..

وكأنما كان فوزى يتوقع هذا السؤال فقال وذراعاه مبسوطتان :

– قلت لى ليه .. شوف ياسيدى ..

وعاودته الحاجة إلى التجشؤ ، لـكنه أكتفى بأن شهق شهقة خشنة طويلة ، واستأنف الحديث :

– دلوقت أخطر سلاح عندك فى السجن . إيه ؟ الإضراب عن الطعام طبعاً .. مش كده .. عظيم .. يبقى تدخل به المعركة من أولها وتحرقه .. النتيجة تكون أيه ؟ هزيمه .. مفيش غيرها . هزيمة بالثلث يا أستاذ .. عظيم .. يبقى غير سليم .

وتمهل ريثما يسترد أنفاسه ، ثم قال فى لهجة أستاذ يقرر قاعدة علمية لتلاميذه :

– غير سليم أنك تبدأ معركة فى السجن باضراب عن الطعام .

وهمس واحد من الجالسين على قاعدة الدلو وهو يتكىء بمرفقيه على ركبتيه :

– صح .

وارتفعت درجة حماس فوزى ، وعلى بالتالى صوته :

– عظيم .. لما تضرب عن الطعام . هدفك إيه ؟ هدفك أنك تحمل إدارة السجن مسئولية حياتك أمام الناس .. بره .. خارج السجن .. مين منهم حايعرف عنك حاجة ؟ .. ولاحد .. ما فيش خبر .. ما فيش علم .. ما فيش تفاعل .. ما فيش نتيجة .. ليه ؟ .. لأن فيه راجل فى الحكم اسمه على باشا وراه ملك .. ووراه استعمار أعداءك اللى جابوك هنا .. يبقى غير عملى .. يبقى غير منتج ..

وثار أحد الجالسين على السرير :

– لا .. لا يافوزى ده يأس .. ده تشاؤم .

ـ لا .. ده واقع الحال يازميل .

ـ لا .. ده واقع الهرب من دخول معركة ..

ـ الهرب ...

وهاجت الأعصاب . واشتد الصياح . وماجت الحجرة بأصوات متناثرة وكلمات مقتضبة تقفز من الأفواه كأنها الحمم .

وفجأة رفع السجين الذى مد ساقيه على «البرش» وصاح فى صوت حاد :

ـ اسمع .. اسمع يافوزى ..

وأخذت الأصوات المختلطة تخف ثم تهدأ . والعيون تتطلع إليه وهو يستطرد :

ـ إلا قول لى .. مين دى ..

وأشار إلى صورة فوتغرافية متوسطة الحجم، لطفلة صغيرة باسمة الثغر بين تحمل ذراعيها قطة سوداء ، معلقة على الجدار :

ـ بنتك ..

وهز فوزى رأسه بالإيجاب . وكان الجميع ساكتون ينظرون بفضول حتى إذا ماساد الصمت الزنزانة أحس بعضهم بالموقف الذى انتهت إليه المناقشة فصاح بغضب :

ـ إيه ده يازميل خليل .. ده تمييع للمناقشة .

وضحك خليل وقال :

ـ أظن قصدك تقول إنه « ترويق » للمناقشة .

وطافت الابتسامات بالوجوه . وانتهز فوزى الفرصة وأخذ يفيض فى شرح وجهة نظره :

ـ يظهر إن كلامى فهم خطأ من بعض الزملاء . طبعا أنا لا أهرب من المعركة . بل أريد أن أخوضها لكن .. لكن بعد دراسة أسلحتى وأسلحة الخصم دراسة موضوعية .

وقاطعه صاحب الصوت الذى اتهمه بالهروب من المعركة :

ــ إيه الإنشاء البليغ ده يازميل .. أدخل فى الموضوع ..

وغضب الجالس على «البرش» لهذه المقاطعة وانتفض قائماً وهو يقول مشوحاً بيديه :

ــ وبعدين فى المقاطعات دى..

وصفق أحد الجالسين على السرير وهو يقول فى لهجة شبه آمرة :

ــ بلاش المناقشات الجانبية دى يازملاء.. كمل كلامك يازميل فوزى.

وسدد فوزى نظرة مباشرة إلى من قاطعه ثم ابتلع ريقه وقال بصوت هادىء أخذ يرتفع ويمتد على غير إرادة منه :

ــأنا عاوز أوضح كويس أنى لا أقلل من أهمية سلاح الإضراب عن الطعام .. بل على العكس أنا أعرف تماماً قيمة هذا السلاح وأقدرها .. ولذلك فأنا ضد استخدامه فى كل خلاف يثور مع الإدارة .. وأريد إذا ما استخدمته أن استخدمه فى الوقت .. فى الظرف .. فى اللحظة المناسبة .. اتفقنا . (واهتزت الرؤوس علامة على الموافقة) عظيم. أنا عاوز أسأل بعد كده .. إيه القصد .. إيه الغرض.. إيه الهدف من قرار منع الورق والصحف والأقلام .. إيه .. إيه ..

وتناثرت من بعض الأفواه كلمات :

ــ الإرهاب ..

ــ التنكيل ..

ــ التعذيب النفسى ..

والتقط لسان فوزى هذه الكلمات ثم راح ينطقها بنفس نبرات أصحابها، وهو يشير إليهم بابهام يده اليمنى :

ــ الإرهاب .. التنكيل ..التعذيب النفسى..عظيم..واحنا حانتعذب ليه .. حانبعد كتير عن الخارج .. عن البلد.. عن العالم .. حانفقد الاتصال بكل هذا .. بكلمة واحدة حانعزل .. حانعزل . .

اندفع بعض الجالسين يعلقون :

– مضبوط ..

– تمام ..

– صح ..

وحرك الآخرون الرؤوس.. وفى هذه اللحظة كان فوزى يقرر فى ثقة أضفت بسمة ذكية على وجهه :

– يبقى .. لاننعزل ..

وكانت هذه العبارة قلماً طلسماً أثار الغموض فى نفوس الجالسين. وحاولوا أن يتعاونوا بنظرات حائرة متبادلة على فهمه. ولما عجزوا تركزت نظراتهم على فوزى متسائلة. فبادر هو إلى شرح عبارته فى نشوة ظاهرة :

– المسألة بسيطة .. بسيطة جداً .. دلوقت الممنوع إيه .. الصحف والورق والأقلام .. عظيم..أنا محتاج الصحف ليه؟..علشان نعرف أخبار الدنيا .. حصل إيه فى المفاوضات اللى بيجريها على باشا مع الانجليز .. محاكمات حوادث سته وعشرين يناير إياها .. تطور الموقف فى كوريا .. حرب التحرير فى الهند الصينية و .. وأين تقضى سهرتك هذا المساء ..

وابتسم فوزى.. وتفجرت بعض الضحكات يصاحبها أصوات تقول:

– سينما راديو ..

– والله ما فيه حاجه تستحق .. كلها روايات أمريكانى ..

وتابع فوزى حديثه :

– .. والورق والأقلام مطلوبين ليه؟.. لتلات أمور. كتابة الخطابات تسجيل المذكرات..تدوين التعليقات والآراء للزملاء.. عظيم .. الأمرين الأولين مش محل بحثنا لأن هناك ترتيب آخر .. إنما المهم هو استمرار وجود التعليقات والآراء بين الزملاء رغم كل شيء .. عظيم .. يبقى

الموضوع هو التوصل إلى طريقة تجعل الزملاء على بينة من الأخبار والآراء والتعليقات مهما كان الوضع ..

وفاجأه سؤال :

ـ وايه هي الطريقة دي يا سي .. فوزى .

ووقف فوزى دون حراك . وعلق نظراته بسقف الزنزانة وهو يقول :

ـ نعمل محطة إذاعة ..

وران السكون على الموجودين لحظات . وهمس خليل وهو يحك قدميه بالبرش :

ـ محطة إيه ..

ورد عليه آخر دون وعى :

ـ إذاعة ..

ـ إذاعة !!

وأحس فوزى بعاصفة من الاعتراضات توشك أن تهب ، فسارع إلى شرح اقتراحه حتى يمنع هبوبها . وانطلق يستعين باشارات يديه ورأسه وعينيه فى إقناع زملائه برأيه . وبدأت التعابير التى ارتسمت على وجوههم تختلف من الدهش إلى .. الجمود .. ثم الانبساط المشوب ببسمات أمله .. وفوزى ماض فى حديثه عن إنشاء محطة إذاعة تمد المساجين بالأخبار العالمية والمحلية وتذيع عليهم الأغانى والموسيقى والقصص والتعليقات والأحاديث .. وتحول دون عزلهم عن دنيا ما وراء أسوار السجن .. ويوضح كيفية الإنشاء والعمل ، ويؤكد استعداده لتحمل مسئولية المحطة .. وما أن انتهى حتى كانت الدهشة المشوبة بالاعجاب قد زلزلت الجميع و صفق أحد الجالسين على السرير قائلا :

ـ دلوقت يا زملاء عندنا اقتراح محدد .. مطلوب التصويت عليه وهو إنشاء محطة إذاعة ..وتكليف الزميل فوزى مسئولية هذا العمل ..

وقبل أن تبدأ عملية التصويت أسرع فوزى إلى القول :

ـ بس أنا لى شرط معين أحب أوضحه قبل التصويت وهو إعطائى سلطة كاملةفى العمل..والسماح لى باستخدام نفوذ اللجنة العامة فى محيط الزملاء والشاويشية الأصدقاء ..

ـ طيب وهو كذلك .. ودلوقت التصويت يا زملا ..

وارتفعت أيدى جميع الحاضرين تؤيد تنفيذ اقتراح فوزى ..

ورنت على باب الزنزانة طرقات متوالية، فى حين كانت أصوات الشاويشية تنبه المساجين إلى انتهاء موعد الطابور . وأطل الشاويش عبد القادر برأسه من فرجة الباب وقال فى مرح :

ـ عدم المؤاخذه.. اتفضلوا على الزنزانات يا أصحاب السعادة المحترمين.

وفى الوقت الذى كان يربت بعض أعضاء اللجنة العامة على ظهر الشاويش عبد القادر فى تودد، شب فوزى بقامته على أصابع قدميه وهمس فى إذنه :

ـ أنا عاوزك فى حكاية مهمة يا شاويشنا ..

وهمس الشاويش دون تردد :

ـ احنا خدامين السيادة يا ..يا زميل فوزى ..

ثم رفع صوته حتى انتابته البحه يهيب بالمساجين :

ـ كل واحد على زنزانته .. تقدم .. يا شعب .

ـ ٢ ـ

أزف الوقت على طابور العصر . وكان كل سجين قابعاً فى زنزانته قارئا لكتاب ، أو متأملا السماء خلال النافذة الصغيرة ذات القضبان المتقاطعة ، أو نصف نائم يراوده حلماً من أحلام اليقظة . وعلى حين غره ارتفع صوت من إحدى الزنزانات :

ـ يا زملاء.. كله يسمع .. بلاغ من اللجنة العامة.

وتسلق كثير من المساجين أبواب الزنزانات وتعلقت أيديهم بقضبان الحديد العلوية . واستمر الصوت يعلن فى لهجة تقريريه :

ـ المطلوب من جميع الزملاء دون استثناء التوجه خلال فترة

طابور العصر لمقابلة الزميل فوزى حمزه.. بزنزانته رقم إثنان وستين .
ويراعى آن تكون المقابلة بحسب أرقام الزنزانات من الأدنى للأعلى .
وترجو اللجنة العامة من حضرات الزملاء عدم التخلف للأهمية القصوى..

ومضت دقائق معدودات فتحت بعدها أبواب الزنزانات وتقاطر المساجين إلى الفناء متصايحين.. يلقى كل منهم على الآخرين أسئلة متشابهة ترمى كلها إلى التخمين عما وراء بلاغ اللجنة العامة من أسرار . وتجمع الكثيرون فى حلقات متناثرة وأراحوا يلغطون . وشوهد سعيد الساعد الأيمن لفوزى يخرج من زنزانته فى حركة سريعة . فاستوقفه أعضاء إحدى الحلقات مشيرين إلى كتلةالقطن الأبيض التى تغطى أذنه اليمنى :

– ايه اللى جرى لودنك يا سعيد ..

وأجاب سعيد وهو يفلت من وسطهم ليدلف إلى زنزانة فوزى :

– وجع .. وجع مفاجىء .

وتلقاه فوزى فارغ الصبر :

– دائماً متأخر.. دائماً متأخر يا سى سعيد..

وحاول سعيد أن يحرك لسانه بالاحتجاج.. ولكن فوزى بدد المحاولة وهو يرفع يديه فى مستوى رأسه الضخم قائلا فى استسلام:

– خلاص ..خلاص ياسيدى .. اقتنعت .. اقتنعت جداً .. ودلوقت انت عارف دورنا ايه . عظيم .. حانرصد امكانيات الزملاء . عظيم .. سعادتك حضرت القلم ..

ولم يجب سعيد بكلمة وإنما داعب كتلة القطن بأصابعه وأخرج من أذنه قطعة من قلم الرصاص فى حجم عقلة الأصبع ثم غمز بعينيه وقال :

– وجع .. وجع مفاجىء ..

وانتظر سعيد تعليقاً ضاحكاً من فوزى فلما لم يحدث شىء توقع بسمة ساخرة .. ولكن فأله خاب عندما قال الأخير :

– عظيم . وأدى كتاب غاندى..اللى حانسجل فيه إمكانيات الزملاء

الإذاعية .. كل واحد فى الصفحة المماثلة لرقم زنزانته .. مفهوم ..

وتقطب وجه سعيد . لـكنه عاد إلى الانبساط . وتشكل جسـده فى جلسة كجلسة كاتب عرائض عمومى بباب إحدى المحاكم ، فى حين كان فوزى يستقبل «أول الزملاء» .. كان نحيفاً إلى درجة غير عادية ويضع على عينيه نظرات سميكة . وحدثه فوزى :

ـــ زنزانة .. رقم ؟ ..

ـــ رقم أربعه ..

وطوى سعيد ورقتين من الكتاب . واستأنف فوزى الحديث :

ـــ الزميل له.. هوايه ..

ـــ أيوه ..

ـــ نقدر نعرف ايه هى ..

ـــ صيد السمك .

وأطلق سعيد بداية ضحكه ، ولـكنه لم يتمها إثر نظرة صارمة من فوزى . وبان الارتباك على السجين النحيف . وقال فوزى موضحاً :

ـــ لا .. مش قصدى هو ايه من النوع الرياضى .. هواية مسلية .. ثقافية .. اجتماعية ..

ـــ مسليه .. آه ..

وغالبته نوبة من الضحك قال بعدها :

ـــ تقليد أصوات الحيوانات والطيور ..

والتفت فوزى إلى سعيد وهو يقول :

ـــ عظيم .. أكتب .. مقلد للحيوانات والطيور .

وصحح سعيد وهو يسطر بقلمه ضاغطاً ما أمكن على الحروف :

ـــ مقلد..لأصوات..الحيوا..

وقاطعه فوزى وهو يشير إلى السجين بالخروج :

ـــ عظيم .. عظيم .. اتفضل يازميل ..

وخرج السجين وهو يتحسس نظارته، ولسانه يغمغم دون وعى «شىء غريب»..وكاد يهوى إلى الأرض نتيجة ارتطامه بسجين ضخم الجثة يزاحمه مندفعاً داخل الزنزانة فى مرح ثائر وهو يقول :

— ما تخبرونا الحكاية ايه بالضبط .. اللجنة العامة بتراقب بره حركة الشاويشية والضباط يمين وشمال .. وانتم مدفوسين هنا .. والله العظيم إن شكلكم زى النيابة والبوليس السياسى تمام ..

وقال فوزى محتداً :

— بلاش هزار دلوقت ياميشيل .. انت زنزانة خمسه ..

— خمسه وخميسه فى عين العدو .. العدو المشترك .

وهمس فوزى لسعيد :

— اكتب.. اكتب .. مؤلف نكت .

والتقطت أذنا السجين كلمة « نكت » فانتفض يقول فى بشاشة :

— سمعتوا آخر نكته .. المأمور راح فى يوم ...

ودفعه فوزى خارج الزنزانه وهو يقول :

— وفرها .. وفرها لبعدين..

وتتابعت المقابلات مع فوزى..وسعيد يسجل على صفحات كتاب غاندى إمكانيات زملائه .. مطرب . موسيقى بالفم. ملخص كتب. مونولجست. قارىء أشعار. مغنى نسائى . ممثل . مؤلف أغان . مجود لآيات القرآن ..

وانتهت المقابلات . وكان فوزى وسعيد قد فرغا من عملية تسجيل استعدادات جميع زملائهما الإذاعية، عدا اثنين فشلت معهما كل الجهود . أحدهما صاحب الصوت، الأنفى المنبع . والآخر ذو العينين البارزتين، فاستبقيا داخل الزنزانة لإعادة مناقشتهما .

قال سعيد وهو يلف كتاب غاندى بين يديه :

— يا جماعة فكروا.. فكروا شويه ..

وتمهل فى النطق وهو يستطرد :

ـ يمكن تلاقوا حاجه . فكروا .. فكروا ..

ولم ينبس أحد ببنت شفه . واكتفى ذو العينين البارزتين باسدال جفنيه ببطء ، بينما أطلق الآخر نفثات متتالية من فتحتي أنفه . وساد السكون الزنزانة . وكانت عيون المساجين الأربعة تتابع دون ماشعور ، صرصاراً يحوم حول جردل المياه ويبدو على حركته شيء من العرج . وفجأة هب فوزى من مجلسه ،وأطبق بقدمه على الصرصار فى عنف وهو يقول :

ـ اسمع يا فهمى . اسمع كويس .. لما كان يبقى عندك وقت فراغ كنت بتعمل إيه ..

وأجاب صاحب الصوت الأنثى ،ولا زالت آثار الاشمئزاز الناتجة عن قتل الصرصار واضحة على وجهه :

ـ أروح السيما على طول ..

ـ عظيم .. يعنى كنت غاوى سيما .

ـ غاوى .. غاوى جداً .

ـ عظيم .. تقدر مثلا تعرض رواية سينما .. تلخصها ..

ـ أقدر قوى ..

ـ عظيم .. عظيم ..

وهتف سعيد وهو يسطر بعض كلمات على إحدى صفحات كتاب غاندى :

ـ فرجت ..

وأكمل ذو العينين البارزتين وهو يؤرجح رأسه مبتسما :

ـ .. وكنت أحسب أنها لاتفرج .

وعند ذلك انتفض سعيد واقفاً وهو يقول فى حماسة من توصل إلى حل مشكلة معقدة حلا موفقاً :

ـ آه .. وانت ياس محمد تبقى تنقد الفيلم اللى يعرضه الزميل فهمى ..

وتبادل الجميع نظرات متسائلة ثم تصايحوا موافقين ، وصوت فوزى يقول :

— عظيم .. عظيم ..

وخرج فهمى ومحمد إلى ساحة العنبر يتجادلان ..

وتناول فوزى كتاب غاندى من جحر سعيد وأخذ يقلب أوراقه متصفحاً فى صمت . واستلقى سعيد على السرير وأخذ يروض لسانه بدندنة خفيفة غير مفهومة ..وذهنه الشارد قد تخطى الأسوار والمسافات، وجسد فى مخيلته صوراً لليالى الجمعة الأولى من كل شهر من شهور الشتاء .. وقد اجتمعت الأسرة بكامل أفرادها بجوار جهاز الراديو ينبعث منه غناء أم كلثوم متدفقاً متماوجاً تنسج آهاته مع أنغام الموسيقى آمالا مشرقة تدفىءالصدور . فى حين كنت الأجسادلحرارة «وقد الفحم، المنزوى بركن الحجرة،وفوقه صورة جد العائلة بسحنته العابسة وشاربه الكثيف، معلقة داخل إطار قاتم تآكلت بعض جوانبه .. وأكواب الشاى وأقداح القهوة متناثرة فى كل مكان .. على المقاعد والأرائك وأرض الغرفة .. وبطن الأب المتكرشة تعلو وتهبط مع الشخير المتقطع الذى كان يصدر منه حينما تنتابه الغفوة بين آن وآخر .

وترت عينا سعيد دمعتين على غير إرادة منه . وشرع فى تجفيفها وهو يعود بطيئاً بطيئاً إلى واقعه المحسوس بالزنزانة .

وألقى فوزى بكتاب غاندى من بين يديه وقام من جلسته قائلا وكأنه يتمم حديثاً ، دار داخل نفسه :

— عظيم .. اسمع ياسعيد ..

وحانت منه التفاتة إلى سعيد، فلاحظ آثارا حمراء حول عينيه فسأله :

— مالك ياسعيد ..

وأجاب سعيد فى هدوء :

— ولا حاجة .

وسكت فوزى برهة ثم لوى شفتيه قائلا :

— طيب اسمع . اللى باقى اغاية داوقت هو..الأخبار والتعليقات .. عظيم .. تعرف المسئول عنهم مين ..حضرتك وحضرتى.

— وحضرتك وحضرتى فى أيدينا أيه .

— فى أيدينا الآتى.. اتفاق مع الشاويش عبد القادر أنه يسلمك يومياً مجموعة الأخبار المذاعة بالراديو..مكتوبة بخط بنته سعاد .. الخط مش ولا بد.. وعلى حضرتك أنك تفسره وترتب الأخبار..وحضرتى حاتوصل لى بطريق آخر قصاصات الصحف.. حا أرتبها مع أخبارك عظيم ..

— والتعليقات ؟

— حضرتى المسئول .

وتريث فوزى قليلا ثم قال :

— هه .. كله واضح ..

واهتزت رأس سعيد وهو يقول :

— طيب..اعمل معروف تعالى الحوش بقى..نتمتع بشوية شمس فى الدقيقتين اللى فاضلين على الطابور ..

— عظيم ..

وانطلق الاثنان يمرحان فى الفناء كطفلين صغيرين ، فرغا من حل مسالة حسابية عويصه .

— ٣ —

لم يعد موضوع محطة الإذاعة سراً خافياً ، فقد اتصل خبره بالجميع .. كان المساجين يعلقون عليه أهمية كبيرة ، كعادتهم فى الاهتمام بكل شىء يحدث فى مجتمعهم الضيق . وينشطون فى تنفيذ التعليمات التى يصدرها فوزى « مدير المحطة » ومساعده سعيد البرماوى .

وكانت إدارة السجن تتسقط أنباء النشاط فى يقظة غير عادية بعدما

جمع المأمور ذات صباح ، ضباط العنابر وأهاب بهم :

— أفتحوا عينكم زى فنجال الشاى .. وفتشوا الزنزانات حته حته .. هيه .. أحسن فيه خبريه أن المساجين بيعملوا محطة إذاعة ..

وردد الضباط فى لهجة جماعية :

— محطة إذاعة !

— أيوه محطة إذاعة .. شوفوا أسلاك هنا ولاهناك .. لمبات . عدد .. أسلاك دول أولاد عفاريت .. أهو أنا حذرتكم وخلاص .. هيه ..

وأرتفعت أيدى الضباط اليمنى فلامست جباهم فى تحية عسكرية وهم يلفظون الواحد بعد الآخر :

— حاضر ياأفندم .

ومنذ ذلك الصباح فرض الضباط رقابة شديدة على تحركات المساجين السياسيين . ومن وقت لآخر كانت الزنزانات تتعرض لتفتيش مفاجىء . ولم تسفر حملات التفتيش والمراقبة عن ضبط أشياء مما عينه المأمور فى تحذيره « أسلاك . لمبات . عدد . » ولم تكن النتائج السلبية تريح نفوس الضباط . بل على النقيض كثفت فى داخليتهم الشكوك الغائمة . وسيطر على سلوكهم الشعور بأنهم إزاء أعداء خطرين ، « وأولاد عفاريت » حقا .

والواقع أنه لم يكن هناك بالدور الخامس من عنبر « ب » ثمة شىء محسوس غير عادى ،سوى إصداء الغناء والصفير وقراءة القرآن وتقليد اصوات الحيوانات والطيور ، تنبعث من الزنزانة رقم « اثنين وستين » الخاصة بالسجين فوزى حمزه خلال فترات طوابير الراحة . وأيضاً تلك البسمات المتنمرة التى يلقى بها المساجين الضباط ، بعد ما كانت وجوههم متقطبة عابسة أثر صدور أمر الإدارة بمنع الصحف والأقلام والورق ..

ولكن إذا كانت العين لاتستطيع أن تكشف عن شىء منظور ، فان الأنف الداخلى فى ذات كل من المأمور والضباط كان يشتم من أجواء النشاط والحركة والتعبيرات الصامتة التى تروح وتجىء على وجوه المساجين —

أن ثمة أشياء مجهولة غريبة عن «الأسلاك واللمبات والعدد» على وشك أن تنقض عليهم من حيث لا يدرون ، فيضطرب النظام وتعم الفوضى ، وتثور أعصاب المأمور ..

— ٤ —

وفى ركن من الزنزانة التى تعج بأفراد « كورس » يرددون مقطعاً من أغنية « نسائية » حاملة وراء شدو رقيق لأحد المساجين .. همس سعيد فى أذن فوزى :

— يا أخى كفاية بروفات .

ولم يجب فوزى بشىء واستمر ملقيا السمع إلى أصوات المغنين . وعاد سعيد إلى الهمس :

— نفتح المحطة بقى أحسن الحكاية طالت ..

وظل فوزى على صمته ، يداعب بأصابعه شعرات شاربه الناشذة . واستأنف سعيد الهمس :

— طاوعنى نبدأ .. الطبخة استوت على الآخر ..

وانتهى الغناء . وعندما قام فوزى يصفق بيديه استحساناً تنبه إلى الهمس المتكرر الذى صبه سعيد فى أذنه دون انقطاع ، فهتف به محتجاً :

— يا أخى كفاية قر .. خرقت طبلة ودنى .. ما احنا متفقين أن دى خربروفة ..

وشهق سعيد وهو يتساءل :

— يعنى الليله . .

— الليله ..

وهاج سعيد بين جدران الزنزانة مغنياً فى مرح :

— « والليـــله عيـــد على السجن سعيد »
« عز وتمجيـــد لك يا زميـــلى »
« لك يا زميلى »

وابتسم فوزى، وامتدت يداه تصاحان من وضع صورة ابنته الصغيرة المعلقة على الحائط .. وشفتاه تتمتمان فى هدوء وأناة ، وكأنه يستلهم الصورة كل كلمة :

— « قطتى صغيرة واسمها نميرة »
« شكلها جميل لعبها مسلى »

وتحكم سعيد فى هياجه وربت على كتف فوزى . وانسل من الزنزانة وتركه وحيداً ..

— ٥ —

وفى الغروب من ذلك اليوم كان الضباط قد انتهوا من تفتيش زنزانات « دور خمسة » تفتيشاً دقيقاً . وسجلوا فى تقاريرهم إلى الإدارة «عدم ضبط ممنوعات من أى نوع كان» فاطمأن المأمور إلى أن يوماً قد مر بسلام . وأوصدت جميع الأبواب . ووضعت المفاتيح فى « الحرز » الذى أغلق بالجمع الأحمر . وانتشر الحراس فوق الأسوار وبالفناء شاهرين السلاح ، وظلالهم الباهته تنعكس مع أشعة الشمس الآفلة ثم لا تلبث أن تذوب فى الظلام الزاحف، مخلفة خيالات طويلة، تتكسر على البناء والفناء وتتراقص مع الأضواء الكهربائية الشاحبة المركبة على الأسوار .. وطنين الأحاديث والهمسات الدائرة بين جدران الزنزانات القائمة هى كل ما فى الصندوق الحديدى ذى الفتحات الصغيرة والقضبان المتقاطعة من حياة ..

وفجأة إنطلق صوت من داخل إحدى الزنزانات :

— يا زملاء .. كله يسمع ..

وتهدج الصوت وهو يصرخ فى تأن وضغط على الحروف :

— الزميل..فوزى .

وبرقت عيون مساجين « دور خمسه » خلال قضبان الأبواب المغلقة وجاء صوت فوزى هادئاً واضحاً :

— حضرات الزملاء .. أنى أتحدث اليكم باسم اللجنة العامة .. منذ أيام

اعتدت علينا الإدارة اعتداء جديداً .. حرمتنا من حقنا فى الإطلاع على الصحف واستخدام الورق والأقلام .. وهى تقصد بذلك تنفيذ رغبة أعداء الشعب فى عزلنا عزلا تماماً عن الحياة .. ولكن نحن الذين نؤمن بالحياة الحرة السعيدة حقا لكل إنسان .. نحن الذين نؤمن ..

وأخذ صوته يجلجل بين جنبات العنبر ويعلو فوق الطنين حتى اسكته .. ووقف سجان الليل جامداً كالتمثال وسط ساحة العنبر الممتدة بين صفى الزنزانات، فاغرا فيه .. وكلمة « نحن » تنطلق من فم فوزى كالقنبلة فكأنها بحرارتها وقوة جرسها تهدم القضبان والأسوار وتبتلع السجن كله ، فتولد الحماس فى الصدور وما يلبث أن يمتد إلى الأطراف ، فتتكهرب الأجساد بانفعال لا ضابط له .. وفوزى يفور فى أعماقه ويمضى فى حديثه :

— .. ونحن الذين نؤمن بالإنسان والحياة والمستقبل .. لن ننعزل أبداً .. وسنظل على إيماننا وكفاحنا رجالا أحراراً .. سواء كنا بين جدران منازلنا أو فى حديد القيود ..

وتدافعت الصيحات تدوى .. وسجان الليل يحاول ـ وقد أفاق إلى نفسه وأغلق فمه ـ أن يهدىء الضجيج أو يسكت فوزى ولكن دون جدوى ..

وارتفع صوت فوزى مرة أخرى وقد تحكمت أعصابه فى انفعاله :

— .. وفى سبيل ذلك قررت لجنتكم العامة أن تنشىء محطة إذاعة .. ترفه عنكم وتمدكم بالأخبار والتعليقات .. وكل ما شاءت الإدارة أن تحرمكم منه .. واليوم تبدأ المحطة أولى برامجها .. يذيعها عليكم الزميل سعيد البرماوى ..

وانشقت الحناجر عن هتافات مدويه ، شاركتها بضعة أيدى متناثرة بالتصفيق تبعتها على الأثر موجة عارمة ، ساهمت فيها جميع الأيدى .. وهدأت الضجة بعد مجهودات متوالية بذلها فوزى وقليل من زملائه .. وأصوات تقول :

— هس ..

— سمع ..

— هس ..

ومضت لحظات سكون قصار تخللتها كحات خافتة .. وصوت سجين يتجشأ .. ثم أتى صوت سعيد مرسلا تشوبه نبرة خطابية :

— أيها الزملاء .. أذاعة الأحرار تناديكم وتبعث إليكم بتحيات الكفاح .. نبدأ براجنا بنشيد المحطة .. تقدمه الزنزانات رقم خمسه . وثمانيه . وتلاتة وعشرين . وثلاثين . وخمسه وأربعين . وخمسين ..

وتوقف هنيهة ثم صاح :

— واحد .. اتنين .. تلاتة ..

وعلى الفور انفجرت أصوات تنشد فى تناسق :

— « يا شعوب الشرق هيا لنضـالنـا المبين »

« سوف نحظى بالحرية رغم أنف الغاصبين »

ورويداً رويداً أخذت أصوات أخرى تنضم للمنشدين .. وتتلوها أصوات وأصوات ، تصحبها دقات منتظمة على أبواب الزنزانات ، تسمع فى نهاية كل مقطع من النشيد . فتمنحه قوة على قوة.. حتى لقد حدث سجان الليل نفسه قائلا: « ياستار .. ده ولا يوم القيامة » .

وتلاشت كلمات النشيد وسكن كل شيء . وعاد سعيد يقول :

— والآن نذيع عليكم نشرة الأخبار .. تقدمها الزنزانتان « خمسة وعشرون » و « اثنان وستون » .

وارتفع صوت فوزى من الزنزانة الثانية والستين يقول :

— إليكم موجز الأنباء .. السجن يستقبل اليوم ستة عشر مواطناً .

وتبعه صوت سعيد من زنزانته الخامسة والعشرين :

— المأمور يخسر عشرين قرشاً فى لعب الورق مع وكيل السجن ..

وراح الاثنان يتبادلان الإذاعة :

— الحكومة المصرية تتعهد بحماية القوات البريطانية بالقنال من الفدائيين المصريين وتلقى القبض على كثيرين منهم ..

ـ طنطاوى .. رئيس المحكمة العسكرية العليا يصدر أمس أحكاماً بالسجن على مجموعة من الشباب الوطنى بلغ عددها مائة وخمسين سنة ..

ـ نهرو .. يدعو للسلام العالمى ..

ـ ثلاثمائة ألف عامل يضربون فى فرنسا مطالبين بزيادة إعانة الغلاء ..

ـ روسيا .. تطالب بتحريم استخدام الأسلحة الذرية ..

ـ توالى انتصارات قوات التحرير الوطنى فى الهند الصينية .

ـ الشعب الإيرانى يطالب بتأميم البترول ..

وما أن انتهيا من سرد موجز الأنباء .. حتى بدأ سعيد فى تلاوة تفصيلاتها ، وهو ممسك بورقة بين يديه اللتين أخرجهما من خلال قضبان نافذة الباب الحديدى إلى حيث تنعكس عليهما الأضواء المعلقة بالساحة ..

وأعقبه فوزى بتعليق إخبارى ، ربط فيه بين سجن الوطنيين ولعب مأمور السجن للورق ، وضرب الحكومة للفدائيين ، وكفاح الشعوب ضد الاستعمار من أجل الحرية والسلام .

وأعلن سعيد بعد ذلك « برنامج السهرة » وطرب المساجين لأغانى سيد درويش ذات الإيقاع القوى والألحان المصرية الأصيلة . وأم كلثوم بآهاتها الحنونة .. وعبد الوهاب فى صوته الرقيق . واستمتعوا « ببرنامج حديقة الحيوان » الذى قدم لهم يوماً من حياة غابة ، تزخر بالطيور والحيوانات .. وتعالت الضحكات من جميع الأفواه حتى من الحراس الذين تركوا مراكزهم واقتربوا من بناء العنبر ، وهم يسمعون «ميشيل» يحرك لسانه بالسخرية من المأمور والضباط والحكام .. وبعض زملائه وأحياناً من نفسه . ويلقى بمنولوجه :

« علشان بنحب الشعب بيودونا المعتقلات »
« م الطور للهاكستيب للسجون والزنزانات »

وحينما أعلن سعيد ـ بعد ما يزيد على ساعتين ـ انتهاء برامج الاذاعة ثارت الاحتجاجات الصارخة من كل ركن ولكن سرعان ما جرفتها

موجة النشيد الذى انطلق جياشاً حاراً ...

وصاح صوت سجين من أحد الأدوار العلوية :

– يا ميت حلاوة عليكم ياسياسية ..

وأحس جميع نزلاء « دور خمسه » فى تلك اللحظة بشعور داخلى بالثقة وراحة النفس . وسمع القريبون منهم للفناء الخارجى ،سجان الليل يقول لأحد الحراس :

– دول بهدلوا لك المأمور .. لكن إيه . بهدله ملوكى صحيح ..

– قالوا إيه .. أنا أصلى ما سمعتش كويس ..

وغالب السجان ضحكة وهو يقول :

– ياسيدى قال إيه .. المأمور راح فى يوم ..

وسمعت فجأة حركة انتباه عسكرية وصوت أجش يصرخ ، والسلاح مشهراً بين يديه :

– قف من أنت ؟ ..

وجاوبه صوت متراخ :

– أمين ..

– تقدم ..

وتقدم ضابط السجن الطويل ليقوم بدورة تفتيشية . فقضم السجان حديثه وهرول الحارس إلى مكانه .

وسأل الضابط السجان :

– حصل حاجه يا شاويش ..

واعتدل السجان فى وقفة عسكرية مشدودة القامة .. وأجاب بلهجة من يقرأ « برقية » فى صوت عال :

– أيوه يا افندم .. هرج ومرج حصل .. إخلال بالنظام حصل ..

وراح يروى ما أذاعته محطة الاذاعة .. والضابط ينصت فى اهتمام ورأسه تدور بصور شتى للمأمور .. صارخاً .. وعابساً .. وضارباً المكتب

والجدران بقبضات يديه . وقال لنفسه : « ليه بس ياربى تقع الحاجات دى فى نباتشيتى أنا .. دايماً أنا » ..

وقفل راجعاً وهو يشيح بأصابعه فى ضيق للحراس الذين كانوا يرفعون أسلحتهم إلى أكتافهم واحداً بعد الآخر تحية له ..

— ٦ —

غدت محطة الاذاعة حقيقة يومية واقعة .. تحدث كل مساء حينما يتوارى قرص الشمس وراء الأسوار العالية عند الغروب ، ويدق « جرس التمام » أثر انتهاء عملية تسليم السجن إلى سجانى الليل ، ويجتاح الضيق الغاضب كيان المأمور فيحيله لآلة ميكانيكية تهدر دون انقطاع ..

وكان كل ما احتواه السجن ، وكل مايصنع داخل جدران الإدارة الأربع ، تذيعه «محطة الإذاعة» ، بتفصيلاته الدقيقية .. « كيف يستطيعون معرفة الأسرار .. هيه .. لابد من وجود جواسيس لحسابهم بالإدارة .. لكن من؟.. من ياناس .. شيء يحير ويربك ويسبب الصداع .. لم يحصل فى تاريخ خدمتى كلها بالمصلحة أبداً .. أبداً .. يقلدونا .. ليه هو احنا حيوانات.. والنكت والمساخر يسمعها الكل من « سياسية ولومانجيه وسوابق وكاركيه .. خلاص هيبتنا ضاعت وبقينا قدامهم بلياتشو .. بلياتشو بطرطور .. والله عال .. كنا قاصدين نعاقبهم بمنع الصحف والورق والأقلام .. بقوا هم اللى بيعاقبونا .. ويحركوا السجن كله ضدنا .. والحرية والسلام وآل إيه الديمقراطية كمان .. خلاص دخلت دماغ القتله والحراميه على آخر الزمن .. يا ناس العمل إيه دلوقت .. العمل إيه يا حضرات الضباط العظام .. »

وكان ضباط السجن يقفون أمام المأمور صامتين مطرقين برؤوسهم إلى الأرض ، وفمه يلقى بالكلمات دون ماتوقف ، كحنفية خربة تتساقط منها قطرات متتابعة عن الماء .

وارتفع رأس أحد الضباط وقال :

ـ عندى فكرة يا أفندم ..

وتحركت شفتا المأمور ، وتحرك معهما أجزاء كثيرة من جسده :

ـ اتفضل ياسيدى .. اتفضل ..

وقبل أن يشرع الضابط فى عرض فكرته سارع المأمور إلى التساؤل فى لهفة من تذكر أمراً ذى أهمية خاصة :

ـ إلا .. قل لى .. صحيح أذاعوا أنى حطيت على ضهرى لزقة أمريكانى .. هيه ..

وتردد الضابط قبل أن يهمس وهو يهز رأسه :

ـ حصل .. حصل يا أفندم ..

واستطرد المأمور مكملا :

ـ .. وان ده كان عمل ضباط السجن فى صباحية امبارح ..

ـ حصل يا افندم ..

وضرب المأمور المكتب بقبضة يده وقد احمر وجهه من الحنق وصرخ :

ـ آه .. لو أعرف مين اللى بيقول لهم على الحاجات دى .. نهايته قل لنا فكرتك .. قول ..

وتبادل الضابط مع زملائه الثلاثة نظرات من يطلب النجدة . ولكن دون طائل .. كان أحدهم ينظر إليه فى شماتة ، والآخر يحرك يديه فى عصبية ، والثالث مغمض العينين تماماً . فعاتب نفسه على المبادرة إلى مناقشة المأمور وهو على هذه الحالة العصبية . وصاح المأمور يستعجله النطق :

ـ هيه ..

وقال الضابط وقد سرت الرعشة فى صوته :

ـ فكرتى يا افندم .. إن المساجين دول زودوها قوى ..

ـ هيه ..

ـ زودها قوى .. قوى ..

ـ هيه ..

ـ وفكرتى إن ده راجع إلى أنهم متكتلين فى حته واحده ..

ـ قصدك إيه ..

ـ قصدى يا افندم .. إن حنا نفرقهم .. نحط شويه فى عنبر « ا » وشويه فى عنبر « ب » و ...

ولم ينتظر المأمور بقية الحديث وإنما هب ثائراً يذرع الغرفة فى خطوات غير منتظمة وهو يقول مستعيناً بحركات يديه :

ـ والله عال . اقتراح عظيم .. اقتراح مدهش .. بقى نفرقهم .. هيه .. شويه فى عنبر « ا » وشويه فى عنبر « ب » .. وبدل ما يبقى عندنا محطة واحدة يبقوا محطتين .. والله عال .. يا ناس ياهوه .. إنتم معاهم والا معانا ..

وحاول الضابط أن يعتذر بكلمات مدغومة . وكتم الضباط الأخيرين ضحكاتهم فى عسر شديد . وكان التعب قد حل بجسد المأمور فألقى بنفسه على المقعد بتخاذل . وصدرت عنه آهات ألم متلاحقة قال بعدها فى لهجة خافتة مشوبة باليأس :

ـ قعدوا يقولوا لزقه أمريكانى .. لزقه أمريكانى .. والله ما هى فالحه .. هيه ..

وتحسس براحة يده بعض مواضع من جنبيه فانكمشت صفحة وجهه وأخذت القسمات تتداخل بعضها فى بعض واستأنف كلامه :

ـ خلاص .. اللمباجو حايموتنى .. اللمباجو ومحطة الاذاعة .

وتدافعت صيحات الضباط :

ـ لا .. لا يا أفندم .

ـ لا بأس عليك ..

وعاد المأمور للحديث ولكن فى شىء من الاهتمام :

ـ تعوفوا أنا فكرت فى إيه .. نفاوضهم .. نفاوضهم ونرجع لهم

الصحف والأقلام والورق ونخلص .. أحسن الاذاعة دى حا تخلى السجن كله يفلت من إيدينا ..

واعترض أحد الضباط :

– بس يا افندم .. ده تراجع .

وزجر المأمور غاضباً .. ووقف صائحاً :

– ما هو ده اللى مجننى .. آه .. يا ضهرى ..

وأجبره التعب الجسدى على الاسترخاء من جديد وقال فى هدوء ولكن بحسم :

– مفيش حل غير المفاوضة .. المفاوضة ..

– بس على طول كده يا افندم ..

– طبعاً مش على طول . بعد شوية بهدلة ووعود ووعيد وما أشبه ..

وسكت المأمور قليلا وبدت عليه سيماء التفكير ثم تساءل :

– لكن مين فيهم اللى أذاع حكاية اللزقة الأمريكانى ..

وسارع أحد الضباط إلى القول :

– فوزى حمزه ..

وأكمل آخر :

– زنزانه اتنين وستين يا افندم ..

– آه .. الولد المحامى القصير .. أبو راس كبيره ..

– تمام يا افندم .

– طيب ده لا بد كان بيقرا من ورقه .. هيه .. والورق لغاية دلوقت ممنوع .. هيه .. زنزانته ياحضرات الضباط تتفتش حته حته لغاية ماتلاقوا ورقه ولا قلم .. وبكده نرميه فى زنزانة التأديب شوية .. بس التفتيش يتم فوراً .. هيه .. قبل الخبر ما يوصلهم .. فوراً ..

وتضاربت كعوب الضباط إحداها بالأخرى . وارتفعت الأيدى اليمنى إلى الجباه . ورددت الألسن فى وقت واحد :

ــ حاضر يا افندم .

وانصرفوا فى نشاط . وقد علقت بظهورهم نظرات تطل بارتياب وقلق من عينى المأمور الحمراوتين .

ــ ٧ ــ

وفى مساء ذلك اليوم هطلت الأمطار بشدة . واكتشف عجز كبير بعهدة مخزنجى السجن العجوز ، ذى الأنف المعوج وقلم «الكوبيا» المستلقى خلف الأذن اليسرى . وارتفعت درجة حرارة المأمور إلى «السابعة والثلاثين وأربعة شرط» . وباتت الزنزانة الثانية والستين خالية من نزيلها صاحب الرأس الكبيرة ، والشارب الناشذ الشعرات .

وارتفع صوت سعيد محموماً يعلن كالعادة :

ــ أيها الزملاء .. إذاعة الأحرار تناديكم وتبعث إليكم بتحيات الكفاح ..

وتوقف لحظة سمعت خلالها حشرجة أنفاس منفعلة خلال السكون الحاد الذى أطبق على العنبر .. ثم طرق صوته الآذان من جديد :

ــ واحد .. اتنين .. تلاته ...

وزأرت الأصوات من «دور خمسه» تنشد «يا شعوب الشرق هيا» وحالما نطقت «لنضالنا المبين» كانت أصوات جميع النزلاء فى أدوار العنبر الأربعة قد انضمت إلى المنشدين . البعض ينشد ما يحفظه من كلمات متفرقة من النشيد . والآخرون يدمدمون باللحن وقد انتظمهم جميعاً إيقاع واحد انسجم مع رنين الأمطار فوق ساحة العنبر . وامتدت كثير من الأذرع خلال ثغرات القضبان الحديديه تلوح بقبضات الأيدى وكأنها تصارع قطرات المطر .. وسيطر على الجميع شعور جنود يخوضون معركة دفاعاً عن الشرف والأرض والأهل والأحباب ..

ونفذ الزئير رهيباً إلى كل ركن من السجن . وقال أحد الحراس

لزملائه باسما : « الإذاعة موجتها عاليه قوى الليلة » .

وطرق الصدى زنزانة التأديب الضئيلة الحجم حيث قبع فوزى فوق الأسفلت الإسود اللزج وحيداً دون غطاء أو طعام سوى كوز ماء آسن ، وقطعة خبز مقدودة كأنها شظفة من حجر . فانتابته نشوة باطنيه صاحبتها قشعريرة ارتعد لها جسده . وأحس كأنما وراء باب الزنزانه الحديدى مظاهرة شعبية تزخر بجموع هائلة تزحف لتحريره من الأسر .. وطاف بذهنه وهو يجتر كلمات النشيد ، صوراً صاخبة لمظاهرات عديدة طالما طالبت بالحرية وحكم الشعب فاضت بها شوارع القاهرة .

وأمحت الصورة من ذهنه مع نهاية النشيد .. وأفاق الى نفسه . واتجهت يده فى الظلام الحالك إلى كوز الماء فرفعه فى بطء إلى فمه وارتشف جرعة منه .. واقتعد القرفصاء اتقاء للبرد الذى أخذ يثلج اطرافه . وارهف أذنيه فسمع صوتاً لا تبين منه الكلمات فى صفاء ، غير أنه بعد دقيقة أو اثنين من الاصغاء المركز استطاع أن يميز الكلمات .. وأن يوقن بأن الصوت .. صوت سعيد ، وإن شابته بحه نتيجة لما يبذله من طاقه فوق احتمال حنجرته وسمع منه :

— « .. لقد استطاع مندوبنا أن يحطم الستار الحديدى الذى فرضته الإدارة حول الزميل المناضل فوزى حمزه فى زنزانة التأديب .. فنقل إليه ما يكنه الزملاء له من تقدير لبطولته وصلابته فى الكفاح . والتصميم على المضى فى المقاومة مهما كانت العقبات .. وقد شكر له الزميل فوزى عواطف الزملاء . ووصف وضعه فى زنزانة التأديب بأنه «تغيير هواء» كان لازماً له بعد أن قضى ثلاث سنوات متتاليات فى زنزانته رقم اثنين وستين .. وحينما طلب إليه مندوبنا أن يسمى الأغنية التى يريد إذاعتها فى برنامج « ما يطلبه الزملاء » قال : «قطتى صغيرة » .. ورغم أن هذه أغنية أطفال فقد جهدت المحطة فى البحث عنها حتى وفقت فى العثور عليها .. »

وتبخر الصوت .. ومط فوزى رقبته فى حركة تلقائية نحو باب الزنزانه .

وعاد صوت سعيد من جديد يعلن : أيها الزملاء .. الزنزانة العاشرة تغنى « قطتى صغيرة » ..

وإنساب على الفور صوت نحيل رقيق يشدو كما يشدو الأطفال الصغار :

– « قطتى صغيره واسمها نميره »

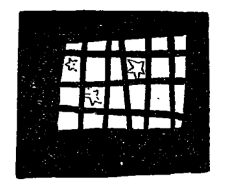
وشيئاً فشيئاً انبثق صوت مشروخ داخل فوزى ، صار يطفو حتى جرى على لسانه خافتاً يغنى فى غبطة فياضه :

– « شكلها جميل لعبها مسل »

« وهى لى كظلى »

وأحس وهو يغمغم كأنما انفاس طفلته الصغيرة تلهث فوق كتفيه فتدفىء أذنيه . وتشعل الحرارة بوعاء رأسه . ولمعت عيناه .. وانسلت ذراعاه تلتفان حول ساقيه المضمومتين إلى صدره ، وتضغطهما بوله وحنان

وفى هذه اللحظة شعر فوزى بدقات قلبه واضحة متدفقة ، كفيضان نهر ..



فهرس


دار النديم
Bibliotheca Alexandrina
0601361